

فَنُّ الْحَيَاةِ

تأليف
سَلَامَةُ مُوسَى

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
٣٣ شارع قصر النيل - بحصر

مطبعة كوشيتا وشركاه
شارع مصر والنيو القاهرة ١١١١٠



فَنِّ الْحَيَاةِ

تأليف
سَلَامَةُ مُوسَى

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
٣٣ شارع قصر النيل - بمصر

مطبعة كرسنستاسيوس وشركة
١٥٠ شارع آزادي على الجيزة - القاهرة - ١١١١١

مؤلفات أخرى للاستاذ سلامة موسى

البلاغة العصرية واللغة العربية

عقلي وعقلك

كيف نسوس حياتنا بعد الحسين

التثقيف الذاتي أو كيف نربي أنفسنا

الشخصية الناجحة

نظرية التطور وأصل الانسان

مصر أصل الحضارة

تربية سلامة موسى

المقدمة

كتبت هذا الكتاب في ضوء اختباراتي للوسط المضرى وقد
عالجت موضوعه من جملة وجهات فلسفية وسيكلوجية واجتماعية .

ونحن نعيش في حضارتنا القائمة عيشاً مكيفاً بعادات المجتمع
موجها إلى أهدافه مدرباً على أساليبه . ولذلك ننساق انسياقاً كأننا
ذاهلون لا نقف ونسائل عن القيم البشرية في هذه العادات والأهداف
والأساليب .

وليس شك أن غاية الحياة أن نحى الحياة على مستواها السامى .
ومعنى هذا الكلام هو أن نعيش بما لدينا من كفاءات بشرية تسمى
على كفاءات الحيوان . أى يجب أن نعيش بالوجدان والتعقل وليس
بالغريزة والعاطفة . وفن الحياة هو فى النهاية الارتفاع بكفاءاتنا
الموروثة إلى ما كسبناه واقتنينا من التراث الاجتماعى الثقافى .

ولكن هذا التراث الاجتماعى الثقافى يجب ألا يسوقنا والأ

يصلنا عن القيم الاصلية في الحياة . وقد التفت في الفصول التالية إلى ثلاثة أو أربعة أشياء لكل منها مكانة مركزية في البحث عن فن الحياة .

التفت أولاً إلى أن النجاح يجب أن يكون كلياً في الحياة وليس في الحرفة أو الزواج أو الكسب . فان كلمة النجاح في مجتمعنا الاقتنائى كثيراً ما يشتهب معناها بمعنى الاثراء . ولكن الناجح الصادق هو الذى يجعل نجاحه شاملاً متوافقاً لنشاط حياته كلها .

والتفت ثانياً إلى أن المجتمع الذى نعيش فيه كثيراً ما يضل بنا ويبعدنا عن القيم البشرية . بل هو أحياناً يسخرنا في أهدافه التى قد تناقض ما نشهد من رقى أو سعادة . فهو منا بمثابة المدينة التى نكتشفنا بمساكنها وأصواتها الصناعية وضوضائها واهتماماتها الزائفة فنعيش فيها ونكاد ننسى أنه على مسافة ثلاثة أميال منا ينهض الريف وطبيعته النضرة وأشجاره ومياهه وحيوانه . وقد نألف عادات هذا المجتمع فلا نجد النشاط إلى تغييرها ولا نهض إلى الخروج إلى هذا الريف القريب . وكذلك الشأن فى تلك القيم الاجتماعية وأثرها فى نفوسنا . حين نعيش فى أسر هذه القيم الزائفة مدى حياتنا .

وقد احتجت إلى أن أوضح أن السعادة كما يشهدها الجمهور إنما هى فى أغلب الاحيان ذهول وتبلد أو استرسال فى العواطف الحيوانية التى تحركها غرائزها السفلى . وإن هذه السعادة ليست جذيرة بانسان راق يرتفع إلى أن يجعل من حياته فناً . وعندى أن

الوجدان أى التعقل هو صميم السعادة . وأنه مهما فدحت الكوارث
فان الوجدان يواجهها فى شجاعة وتحدٍ وفهم .

كذلك التفت إلى قيمه الثقافة من حيث أنها تكفل لنا توسعاً
ذهنياً ينتهى إلى أن يكون توسعاً حيويًا . لأنها، أى الثقافة، تريد اهتماماتنا
وتعودنا عادات إيجابية عندما نصل إلى الشيخوخة . وعلى القارئ
أن يقرأ كتابي الآخر « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » . فاني
هنا أكدت النبرة فى هذا المعنى أى القيمة من الدراسة والثقافة
للشيخوخة السعيدة .

وكان يمكن أن أسمى هذا الكتاب « الحياة السعيدة » لولا أن
كلمة السعادة قد ابتذلت فى معانٍ سلبية . كما أن هناك التباسات
واشتباهاة كثيرة عن حقيقة معناها . وقد احتجت إلى التنبيه عن
ذلك . ولكن فى عبارة « فن الحياة » ما يرفع القارئ عن مبتذلات
كلمة « السعادة » .

وأرجو أن يكون فى الفصول التالية توجيه لقراءها من الشباب
والكهول ؟ .

سلام موسى

فن الحياة

يعيش الحيوان على المستوى البيولوجى : يأكل ويشرب ويتناسل . ولكننا نحن البشر نعيش على المستوى المدنى الفنى الثقافى . وقد لا يصدق هذا على جميع البشر ، أو بتعبير أصح ، قد لا يصدق هذا القول من حيث الدرجة التى يبلغها البشر فى المدنية والفنون والثقافة . ثم هو لا يصدق على جميع الطبقات حتى فى الأمة المتقدمة . فأننا مازلنا نجد الطبقات الفقيرة فى مصر والهند تعيش على المستوى البيولوجى . بل الحال كذلك أيضاً فى الطبقات الفقيرة فى أمم أوروبا الجنوبية حيث يشنع أفرادها بالحياة السلبية أى باتقاء الموت والجوع والمرض والفاقة . وهؤلاء جميعاً لا يلتذون الحياة وإنما يكابدونها

ولكن جميع الأمم المتقدمة تحوى طبقات من الشعب تعيش الحياة الإيجابية إذ هى قد إطمأنت من ناحيتى الجوع والمرض بل هى قد استبعدت الموت إلى مابعد السبعين أو الثمانين من العمر . وهى تجد فى كفاية العيش ما يقيح لها الاستمتاع الروحى والمادى . وهذه الطبقات تمثل فى عصرنا طلائع البشرية القادمة حين يعيش جميع الافراد ، جميعهم بلا تمييز ، على المستوى الفنى الكمال لأن الضروريات تتوافر إلى الحد الذى

لا يحسب لها حساب ولا تكون سبباً للهموم والاهتمامات .
وليس هذا العصر بعيداً . بل هو أقرب إلينا مما نتخيل .

والانسان في كفاحه الاجتماعى ينشد الضروريات أولاً
حتى إذا توافرت طلب الكماليات . ثم تعود هذه الكماليات
ضروريات الأجيال القادمة . فهى ترف أولاً يقتصر على
أفراد معدودين . ثم رفاهية ثانياً تشمل طبقة كبيرة . وأخيراً
ضرورة لجميع أفراد الشعب المتمدين المثقف .

أنظر إلى الطعام : تشد فيه الانسان البدائى الشبع .
لا يرجو غير الضرورة البيولوجية . وانظر إلى المسكن الذى كان
يبنيه للاحتباء من الوحش أو العدو أو الجو . وإنظر إلى اللباس
الذى كان يتخذه للدفء . أجل لقد كانت الطعام والمسكن
واللباس من الضروريات . ولكن من منا نحن المتمدين يقنع
من هذه الثلاثة بالضروريات البيولوجية فى عصرنا ؟

صحيح أن للفاقة ضغطها المرهق بين الطبقات التى لا تزال
فى أسفل الدرج من السلم الاجتماعى . وصحيح أن هذه الطبقات
لا تزال تقنع بالضروريات البيولوجية من المسكن واللباس
والطعام . ولكن فى كل أمة طبقات أخرى استمتعت بقسط
كبير من المال والثقافة والحضارة . وهى لذلك تتوخى الفن فى
كل ما تناول من عمل . فالمسكن ليس مأوى فقط . إذ هو

متحف أيضاً يتزين بالآثاث الفاخر والصور الجميلة والطرف
الأنيقة . وسيداتنا وآنسائنا لا يطلبن من اللباس دفئاً قدر
ما يطلبن منه زينة وجمالاً . والمائدة التي تحمل ألوان الطعام
تتفنن في ترتيبها وإيجاد الأطباق الثمينة والآنية الغالية عليها .
وهذا إلى ترتيب الزهور ونحو ذلك حتى ليعد تناول الطعام منها
نشاطاً ذهنياً فنياً

فهنا فنون في البناء والآثاث واللباس والمائدة نرتاح إليها
ولا نرضى بأن نعيش بدونها تلك المعيشة الفطرية التي كان يقنع
بها الانسان البدائي وما زال يضطر إلى أن يقنع بها أو بما يقاربها
الفقير المغبون . وقيمة الفن أنه يرفع مألوفنا إلى مستوى من
الجمال تزداد به لذة واستمتاعا بل تزداد به فهماً ووجداناً

وبالفن نرفع المشى إلى الرقص . ونرفع النثر إلى الشعر .
ونجعل من الكلام بلاغة . وكذلك نستطيع أن نعيش الحياة
الفنية قهدها إلى الفن في الحياة ، والبلاغة في السلوك والتصرف .
ويجب أن يكون فن الحياة أخطر من فنون الحضارة . لأنه إذا
كان من الحسن أن نتخذ الزي الفني للباسنا فإن من الأحسن
أن نتخذ الزي الفني لحياتنا وتصرفنا وسلوكنا

والمشكلة الأولى لكل إنسان على هذا الكوكب أنه

سيعيش سبعين أو ثمانين سنة . فكيف يقضيها ؟

هل يعيش تلك الحياة التي يصفها شكسبير بأنها قصة يقصها أبله فتحتفل بالوضوء والغضب ثم لا يكون لها مغزى ؟
أو يعيش تلك الحياة البقلية يولد وينمو ويموت وكأنه بعض البقول لأن قصارى ما كان يطلب طعام وكساء ومأوى ؟

قد يخطر بذهن القارئ عندما نذكر الحياة الفنية أو الحياة البليغة إننا إنما نقصد إلى زخارف وبهاج . ولكن الفن الخالص والبلاغة الحقيقية يعينان في لباهما حكمة وسداداً . لأن كلمات الحكمة هي أسمى أنواع البلاغة والفن . ولكن ما هي الحكمة ؟
هي العمل أحياناً بالمعرفة .
وهي أحياناً تجاهل المعرفة .
وهي التمييز في القيم والاوزان .

والانسان يختلف من الحيوان من حيث أنه وجداني يتعقل في حين أن الحيوان غريزي يندفع . ونحن نهذف إلى قصد في نياتنا في حين هو يعيش جزافاً . ونحن نقرر مصيرنا بأيدينا في حين هو ينساق خاضعاً للقدر . وقد يخالف قولنا هذا ذلك المنطق الآلى الذى يرتب النتائج على الأسباب ولكنه يطابق المنطق العمل الذى نحيا به فى مجتمعتنا المتمدن

وحياتنا فى عصرنا هذا تضطرب وترتبك بل أحياناً تلتغز . وقد كان لأبائنا أعلام قديمة يسترشدون بها فى طريق الحياة

الساذجة التي كانوا يحيونها . ولكن هذه الأعلام لم تعد تكفي
لارشادنا في طريق الحياة الجديدة . ولذلك نحن في حاجة الى
تعاليم جديدة نتعلم بها كيف نعيش الحياة الفنية أى الحياة
الحكيمة وكيف نقضى سبعين أو ثمانين سنة على هذا الكوكب
ونحن نتمو وننضج الى الأيناع . فلا تكون حياتنا مكابدة بل
إلتذاذاً روحياً ومادياً . ونحن في مجتمعنا إنما نحصل من التعليم ،
في الأغلب ، على أسلوب الارتزاق الناجح وليس على أسلوب
الحياة الناجح . لآتنا ننسى أن الحياة أعم وأهم من الكسب .
وإننا نكسب كي نعيش ولا نعيش كي نكسب كما هي الحال الآن
وإنما صارت الحال كذلك لأن شبخ الفاقة يلوح على
الدوام في مخيلتنا . ولذلك صار التعليم من أجل الارتزاق يغمر
كل شيء آخر . لآتنا نعيش في اقتصاديات القلة في حين أن
اقتصاديات الوفرة على الأبواب تنتظرنا بل تنادينا . ولا تحتاج
إلا أن نوميء بأصبع الرضى فيغمرنا الخير الوفير الذي لانعرف
فيه معنى الفاقة أو الحاجة . وعندئذ أى عندما نوميء هذه
الايماة ونرضى بالتعاون بدلا من المباراة في الاتاج ، نستطيع
جميعنا أن نعيش العيشة الفنية ونحي الحياة الحكيمة وأن
نتوخي مأرباً فنياً في كل ما تناول من معارف أو معاش
وهنا يثب علينا المتشائم : لكأنك ترى الدنيا مشرقة في

— ١٤ —

ألوان الورد وقد غمرت السعادة جميع البشر بما سوف يدبرون من تعاليم أو أنظمة . ولكن أين هذا التفاؤل من حقائق الدنيا ؟ من الأمراض والرزايا ؟ من الرجل يفقد نور عيليه ويرى الدنيا ظلاماً ؟ من الأم تفقد طفلها وتضم لمحمة الطرى ووجهه الخوفى تراب القبر ؟ من الشاب يسمع حكم الأعدام من طبيبه الذى ينبته بمرض لا يعالج ؟

ولكن هذا التشاؤم قد بولغ فيه . لان الكوارث نفسها من فن الحياة وحكمتها . وذلك الانسان الذى لم تكرهه كارثة تصل إلى مخ عظامه ، ذلك الذى لم يحس اللوعة يغص بألمها ويحمد من هولها ، ذلك الانسان لم يعيش الحياة الفنية ولم يعرف حكمتها . وأقل ما يقال عنه أنه لم يعيش الحياة الكاملة . ومع ذلك نحن نبالغ . فان كلا منا يعرف أن أعظم المصائب التى كان قد توقعها لم تقع له . وإن بعض هذه المصائب كان مفيداً قد انتفع به . انظر إلى قول داروين : « لو لم أكن مريضاً إلى حد عظيم لما أتممت كل هذا القدر الكبير من الاعمال » .

وكثيراً ما نعيش سادريين ذاهلين حتى إذا كرثتنا الكارثة قلبننا كأننا قد إستيقظنا من نوم فينبليج لنا نور وتنكشف لنا حقائق ما كنا لئراها لولا هذه الكارثة . وأيام المرض فى السرير كثيراً ما تكون أيام التنبيه والتجديد .

وبحن في حاجة دائمة إلى استعجال ذكائنا كي نميز بين لذة
العاطفة ولذة الوجدان ، وبين السرور الزائل والسعادة الباقية .
وبين الامتياز الذاتى فى النفس وبين الامتياز المادى فى العقار .
أى بين ما نكونه وما نملكه .

والحياة الفنية هى الحياة الجميلة . ومع جميع التعاريف للفن
والجمال لا يزال عاجزين عن تعريفهما الصحيح . ولكن من
منا لا يعرف الفن والجمال ؟

ان هناك أشياء نعرفها بالاحساس النفسى . وأشياء أخرى
نعرفها بالاختبارات الذهنية وليست الاولى دون الثانية وأن
تكن فى مرتبة أخرى . وإذا كنا ننشد الفن والجمال فى الاثاث
والبناء والرسم فالتنا يجب أيضاً ، بل بأكثر عناية وهمة ، أن ننشد
الجمال فى الحياة ، فى الشخصية الرشيقة ، والدهن اللبق ، والجسم
الانىق كما فى الأخلاق السامية والاهداف الروحية والعلاقات
الاجتماعية .

نحن غريزة وعقل

كى نعيش العيشة الفنية ونحى حياة الحكمة والتعقل يجب أن نعرف أن كلا منا مركب من غريزة وعقل. الغريزة هى قديمنا الموروث ، هى التقاليد البيولوجية ، هى ذاكرة النوع الجامدة . والعقل هو جديدنا الذى يتعلم وينمو ويميزنا بالفهم عن الحيوان ذلك أن الحيوان يعيش بالغرائز أو أن ٩٩ فى المائة من حياته كذلك . وفهمه للدنيا ذاقى على مستوى منخفض ليس له وجدان موضوعى . ولكن الانسان بعقله ووجدانه يستطيع أن يجعل فهمه موضوعياً وأن يصل إلى حقائق الدنيا كما هى فى حقيقتها أو ما يقرب من ذلك . وعلومنا وآدابنا وثقافتنا وحضارتنا إنما هى ثمرات العقل وليست ثمرات الغرائز

الحيوان فى ذهول بغرائزه يحى وكأنه فى حلم . والانسان بالمقارنة به فى تبه ويقظة بعقله ووجدانه هذا الوجدان الذى يجعله يتصرف وهو يدرك أنه يتصرف ولكن الحيوان لا يدرك وهذا الوجدان هو الذى يجعلنا على دراية بالموت والفقر والكوارث حتى قبل وقوعها . ونحن بالطبع نشقى بكل ذلك . ولكن هذا الشقاء الإنسانى ، ولا نرتضى النزول عنه كى نعيش بالغرائز ، نعيش فى ذهول كما يفعل الحيوان . وعندما نربى أنفسنا

أو أبناءنا إنما نعلم إلى هذا الوجدان ونستنبط التعقل ومحاولة التعرف إلى الأشياء كما هي في حقيقتها وليس كما تصورناها غرائزنا .

وواضح أنه ليس هناك إنسان يعيش بوجدانه فقط يتعقل كل شيء ويتفهم الدنيا تفهما موضوعياً . لأن كثيراً من تصرفنا يعود إلى الغرائز التي نندفع بها أحياناً اندفاع الحيوان أو نسلط عليها الوجدان بالتعقل فنعين لهذا الاندفاع سرعته وطريقته . ومهما حقّر الإنسان وهان وانحط فإنه يستطيع ، عندما يتأمل عقله ، أن يقول : ما أعظمني ! أي ما أعظم عقلي الذي يتجرد من غرائزي ، ويبحث النجوم والأخلاق والشرف والسياسة ومستقبل البشر وفلسفة الكون وتطور الأحياء .

ومهما عظم الإنسان وسما ونضج فإنه يستطيع ، عندما يتأمل غرائزه ، أن يقول : ما أحقرني ! أي ما أحقر هذه الغرائز التي اندفع بها إلى الطمع والحسد والعدوان والاقتناء والانغماس والنهم والشرب !

ولأن الإنسان عرف الحسة التي تنحدر إليه غرائزه وأحس ممض النفس وصداع القلب في المواقف التي اصطدم فيها عقله بغرائزه ، لأنه عرف هذه المواقف ، عمد في كثير من الأحيان إلى جحد هذه الغرائز بالزهد والنسك . ومن هنا نشأت الرهبنة

في بعض الأديان انكاراً للغريزة الجنسية ولبعض الغرائز الأخرى كالاعتناء والتسلط والحسد والافتقار إلى كآفة أن نعيش بالوجدان والتعقل .

ولكن هذا الانحياز نحو التعقل وانكار الغرائز لا يطبقه إلا الأقلون . بل يجوز لنا أن نشك حتى في هؤلاء « الأقلين » وهل أطاقوا نسكهم وهل استطاعوا انكار غرائزهم أم بقيت هذه الغرائز كامنة محتبئة في أغوار نفوسهم تتحين الفرص لا للثورة على العقل فقط بل أيضاً للتسلل ملتوية منحرفة عن طريقها حتى حملتهم على أن يسلكوا السلوك الشاذ . ويتصرفوا بالتصرف السيء .

ونحن نعرف من السيكلوجية أن الغريزة وقت التهايبا عندما نسميها عاطفة تفور بنا كالماء المغلي وتطلب المنفس والمخرج فإذا لم تجدتهما اندست وبقيت بقوتها تبحث عن المخرج الضعيفة حتى إذا وجدتتها انفجرت فلا يكون منها غير الأذى الفاسد لشخصيتنا . وأولئك الذين حبسوا الغريزة الجنسية مثلاً لم ينجحوا قط في الغائما ومحوها . وقصارى ما وصلوا اليه عريضة جنسية مختلفة الألوان والاسماء . أو هم قد خدعوا أنفسهم من حيث لا يدرون فاتجه نشاطهم الجنسي إلى ألوان قائمة من السلوك والتصرف تؤذى المجتمع وتفتت شخصياتهم .

ولا يطالبنا فن الحياة بكظم العواطف وقمع الغرائز . لأننا لا نستطيع أن ننكر طبيعتنا ، إذ أننا غرائز وعقل . فيجب أن نصالح بينهما أى أن نهذب غرائزنا ونجعلها ملائمة لقواعد المجتمع الذى نعيش فيه دون قمع أو جحد .

وفى أغلب الاحوال ينهى معنى التهذيب للغرائز إلى الاعتدال فلا نسرف فى الانقياد للعاطفة الجنسية ولا نغلو فى الطموح والغيرة والحسد والتسلط . وكلمة « غريزة » من الكلمات الغامضة لأننا نجعل أصلها هل هو طبيعى أم اجتماعى . ولكننا عندما تتأمل نشاطنا الاجتماعى كله ، ذلك النشاط الذى ينظمه العقل وإن كان مرجعه غريزياً ، نجد أنه يعود إلى ما يشبه أن يكون غريزة واحدة هى شهوة الأمن والطمأنينة .

وهذه الشهوة أصيلة فى الطبيعة البشرية وهى التى تدفعنا إلى جمع المال واقتناء العقارات والمنقولات والانغماس فى الكسب كما أنها هى الأصل فى الغيرة والحسد والطموح والطمع . ونحن نمارس كل هذه الأشياء مدفوعين بالخوف أى الرغبة فى الطمأنينة ثم نلساق فى عادات هذا النشاط التى تملكنا فلا نعرف أين نقف . كذلك البهيمة التى نهدها إلى الساقية فتدور وتجرحها مكرهة حتى إذا جئناكى نحل رباطها ونطلقها رفضت واستمرت فى دورتها بقوة الاندفاع الأول

فهنالك مثلاً من ينساق لغريزة الخوف ويطلب الطمأنينة يجمع المال . وهذا حسن إذا عرف أين يقف ومتى يقنع بمقدار من المال يحقق هذه الطمأنينة . ولكن بعيد جداً أن يعرف هذا لأنه حتى بعد أن يحقق هذه الطمأنينة ويجمع من المال ما يكفيه هو وعائلته ينساق في عادة الجمع . فلا يكون المال خادماً بل سيده الذي يستبد به ويحمّله على الجهد أكثر من عماله الذين يخدمونه حتى ليصل إلى مكتبه أو متجره قبل دخولهم ويخرج بعد خروجهم هذا هو شأن كثير من الناس الذين يشقون لأنهم ينساقون مندفعين بغرائزهم دون أن يسلطوا عقولهم عليها فيعتدلون وينظمون نشاطهم كي يعيشوا الحياة الفنية المتناسقة . ومن شأن الغرائز أنها تسرف وتغلو لأن الطبيعة تحرص على بقاء النوع . وقد جهزتنا بهذه الغرائز قبل أن تجهزنا بالعقل وذلك كي تكفل لنا البقاء والتغلب في ميدان التنازع بين أنواع الحيوان وأفراده للبقاء . اعتبر مثلاً غريزة التناسل . فان رجلاً واحداً ، واحداً فقط ، يحمل في جسمه من الجراثيم المنوية ما يكفي لتلقيح أنثى النوع البشري كله . ونجد مثل هذا الاسراف في سائر الغرائز . فان غريزة الحيوان تحملنا على الرغبة في التسلط بامتلاك هذا الكوكب إذا قدرنا . وقد حاول ذلك الاسكندر وتيمورلنك و نابليون وهتلر . وحين نشرع في الاقتناء نتوهم أننا يجب أن نجمع ما يكفي ألف سنة .

وقيمة العقل أنه يتسلط على غرائزنا ويحملنا على الاعتدال
ولكن بلا زهد أو نسك . أى بلا انكار للغرائز . وقد يكون
لقليل من الزهد قيمة في التذاذ العيش أى في التأنيق في الاختيار
بالامتناع عن قبول كل مايرد . كالعطش يجعل الشراب أسوغ :
ولكن الاستمرار عليه جنون قاتل .

وتقتضينا الحياة الفنية أن نعيش بالعقل والغريزة معاً في
مصالحة ووافق بين الاثنين : ولكن في تحيز نحو العقل لأن العقل
إنسانى والغريزة حيوانية . ولأن الفرق بين الانسان الانسانى
والانسان الحيوانى هو أن الاول يعتمد فى الاكثر على وجدانه
وعقله فى حين يعتمد الثانى فى الاكثر على غرائزه .



كيف نسوس عواطفنا

العواطف قوات موطرية أو انفجارية . وهي في حال الأولى تكسبنا الطاقة التي نبعث بها إلى النشاط الذهني أو الجسمي . ولولا هذه القوى الموطرية لما تحركنا إلى الطموح أو الدراسة أو الكسب . وهي لذلك جهاز نافع أيام الصحة . ولكنها تستحيل إلى قوة انفجارية معرودة أيام المرض تتطوح بها إلى الجنون أو الشذوذ أو الاجرام .

والعواطف في مجموعها اجتماعية أي أننا نكسبها من المجتمع وليس من الطبيعة . وصحيح أن هناك عواطف نرثها وراثية طبيعية كالعاطفة الجنسية أو عاقفة الجوع إلى الطعام . ولكن حتى هذه العاطفة « الطبيعية » تتخذ لونا اجتماعيا .

والمجتمع الذي نعيش فيه ، بما له من طرق في كسب العيش وأساليب الإنتاج ، يعين العواطف الشخصية لكل شخص منا . فإذا كنا نعيش في نظام اقتصادي يقوم على المبادأة فإن صفات الأنانية والغيرة والرغبة في التفوق والاقتناء والطموح تصير عواطف شخصية تحفزنا إلى العمل والكسب ، وأحيانا تستحيل هذه الصفات إلى عواطف سيئة . كالحسد والتسلط والخوف . وتحدث لنا عواطف أخرى إذا كنا نعيش في مجتمع تعاوني

ليس فيه سيد ومسود وغنى وفقير وكانز ومحروم كما هي الحال في المجتمعات الاشتراكية .

ولأننا نعيش في مجتمع قائم على المباراة ، فإن جميع الرذائل التي تستتبعها المباراة تتخذ شكلا عاطفيا في نفوسنا . ولذلك نشقى كثيرا بالإنانية والحسد والرغبة في التفوق والاقتناء والطموح . ذلك أن الوسط الاقتصادي محدود الفرص . فقد يجد غيرى فرصة لا أجدها أنا فأبتس لتخلني وأغار من تقدمه وأحسده على ذلك . وكل هذه العواطف تؤذيني أو هي تبعثني على الإفراط في الجهد حتى أموت قبل الأوان بزيادة الضغط للشرائين أو بعجز القلب أو بالاختلال في التمثيل السكرى أو قد أبقى مريضا بهذه الأمراض وغيرها وأشقى بها . وهذا إلى هموم لا تنقطع تغشى نفسى بالغم والكآبة وقد تحملنى على الاتحار .

ولذلك نحتاج ، كي نعيش الحياة الفنية في هناء ، أن نسوس عواطفنا حتى تبقى موطرية قدفعنا إلى السير متشدين ولا تكون انفجارية ثور بنا وتبددنا . وأول ذلك أن نعرف بوجدان يقظ وتعقل متزن أننا نعيش في مجتمع قائم على المباراة . وأنه يحملنا على اتجاهات مؤذية . فيجب أن نجعل القناعة الاقتصادية مصباح الهداية الذي نستضيء به . فلا تتطوح في مطامع لا تقوى

على تحقيقها فنكون لها عبيداً نجري ونهرول طوال حياتنا كأننا مسخرون في جمع المال واقتناء العقار .

وليس هنا مقام التحليل لعواطفنا المختلفة حتى نثبت للقارئ أنها كلها تعود إلى مجتمعنا . فان غير المرأة من حماتها؛ أو العكس . وكذلك مناصرة الرئيس لمرءوسيه ، ثم الاهتمام المريض للمستقبل والتضحية بالحاضر للمستقبل ، ثم الخوف من الفقر والخوف على الأولاد من الأخطار ، كل هذه العواطف تعود إلى نظام نفسى ينهض على أساس المجتمع الاقتصادى الذى نعيش فيه .

وقصارى ما نستطيع أن نبسطه في هذا الفصل هو نصائح موجزة نبني بها علاج المجتمع الاقتصادى الذى نعيش فيه . أى علاج الفرد بما تجلبه عليه العواطف التى غرسها فيه المجتمع . أما العلاج الحاسم فهو تغيير المجتمع من المباراة إلى التعاون ومن الاقتناء الفردى إلى الاقتناء العام .

١ — من شأن العواطف أنها لا تؤذينا إذا كانت الكارثة كبيرة فادحة ولكنها مع فداحتها مفردة . أى وقعت مرة واحدة ثم انتهت . فحين نتحمل الافلاس التام ، أو موت الابن أو الأم أو كارثة الغرق أو الحريق أو الطلاق . ولكننا لا نتحمل الزوجة التى تناكدنا كل صباح على الطعام أو القهوة . ولا نتحمل

— ٢٥ —

الزوجة معا كسة حماها . ولا يتحمل الطالب توبيخ أبويه كل يوم لفشله في الامتحان . أى إذا تكررت المناكدة أو المعاكسة كل يوم ، ولو كانت لأسباب نافهة ، أدت بها إلى الانهيار العصبي الخطير . لأن العبرة بالتكرار .

٢ — لهذا السبب يجب ألا تعيش الزوجة مع حماها أبدا . وإذا كانت هناك ظروف تضطرهما إلى الاشتراك في العيش فليكن هذا على وجدان منهما . أى يجب على كل منهما أن تعرف أنها في حالة شاذة وأن تحتاط من الوقوع في المناكدة أو المعاكسة .

٣ — يجب على الأب ، إذا فشل ابنه أو بنته في الامتحان ، ألا يعتمد إلى تقريره كل يوم . لأن هذا التقرير قد يؤدي إلى انهيار عصبي خطير . وخاصة إذا كان بين ١٧ ، ٢٥ .

٥ — الاهتمامات الكثيرة المتنوعة تخفف من ضغط العاطفة ، وتحول دون اجترارها .

٦ — إذا ثقلت العاطفة فإن النشاط الجسمي يخفف من ثقلها . حتى المشى والجري يخففان من ثقلها .

٧ — من الواجب أن ننبه الرؤساء في المصانع والمكاتب إلى أن يكفوا عن معاكسة مرموسهم حتى لا يكون أحدهم

—٢٦—

كالحماة التي تبعث بزوجة أبنها إلى المارستان لأنها لا تفتا نوبتها
وتبخسها .

٨ — يجب أن نقلل من مظاهر الحزن مثل احتفال الاربعين
للتوفى أو التفجع في الجرائد على المتوفين . لأن هذه المظاهر
تحبي الحزن القديم عند الغير .

وهذا أحسن ما نستطيع أن نقول في مجتمع المباراة الذي
نعيش فيه . وهو مجتمع سيء في اساسه .



التربية

لا نقل طفولتنا البيولوجية عن ١٧ سنة . ولا نقل طفولتنا الاجتماعية عن ٣٠ سنة . ومعنى هذا أن مدة التربية عندنا طويلة . وذلك أننا لانولد بأجهزة من الغرائز التامة التي نعمل بها بلا تعليم كما تفعل صغار السمك التي تسبح عندما تخرج من بيضها . ولا بأجهزة ناقصة كما تفعل صغار الطيور التي تحتاج إلى شيء من التعليم كي تطير وتجرؤ على اقتحام الجو .

ذلك أننا نحن البشر قد استغنيينا عن الكثير من غرائزنا . أو قد وضعناها في الصفوف الخلفية من كياناتنا النفسية وأقننا العقل وصياً عليها يديرها ويوجهها . حتى أننا لانأكل ولا نتناسل في استسلام كامل للغرائز إذ أننا نسلط العقل هنا أيضاً ونجعل له التصرف الأعلى . وصحيح أننا لانستطيع أن نخذ هذه الغرائز ولكننا نستطيع التصرف بها وتوجيهها .

وتسلط العقل يجعل التربية ضرورية لكل فرد منا . وخاصة إذا كنا نعيش في مجتمع راق أى أرقى وأكثر تركباً من المجتمع الزراعى أو البدوى . وتتجه التربية في عصرنا إلى إيجاد عادات ومهارات نكسب بهما العيش . وليس من شك في قيمة التربية وخاصة في مجتمع لا يزال يعيش على اقتصاديات القلة وليس

على اقتصاديات الوفرة التي يلتهم فجرها الآن في الأمم المتقدمة في الانتاج الآلى ، . ولكن التربية يجب أن تكون للحياة قبل أن تكون للكسب .

وكذلك يجب ألا ترمى التربية إلى تعاليمنا المعارف والثقافة فحسب وإنما يجب أن توجهنا الوجهة التي نتعلمها وحدنا . وكى نوضح قصدنا نطلب إلى القارىء أن يقارن بين أرسطوطاليس وبين تليذ في السنة الثالثة أو الرابعة من مدارسنا الثانوية . فليس من شك أن التليذ يفضل هذا الفيلسوف في كثير من معارفه الكيماوية والبيولوجية والطبيعية والجغرافية . ولكن ارسطوطاليس يمتاز باتجاه معين نحو البشر والكون والمعارف وهذا الاتجاه يحتاج تليذنا إلى خمسين أو ستين سنة حتى يصل إليه . بل قد لا يصل إليه لأنه لا يجد من يرشده .

ليست التربية السديدة أن أعرف وإنما هي أن أعرف كيف أعرف أى كيف أعلم نفسى وأزيد معارفى وأكون طالباً مدى حياتى . وليست التربية أنى أعرف كيف أكسب العيش بل هي أن أعرف كيف أعيش سبعين أو ثمانين سنة على هذا الكوكب فى نمو لشخصيتى وترقية لذهنى . ويجب ألا يكون هدف التربية ، كما هو الآن ، النجاح الحرفى للكسب ، إذ يجب أن تهدف إلى النجاح فى الحياة . لأن الحياة أكبر من الحرفة .

والنجاح فيها يقتضى النجاح فى الصحة والثقافة والعلاقات الاجتماعية والعائلية والارتقاء الفنى والذهنى الخ ..

يجب أن تهدف التربية إلى أن تحمل كلاً منا على الاهتمام بالآثار الأنيق والرسم الفنى كما نهتم للكسب فى مجتمع اقتنائى يعيش أفرادُه بالمباراة . ويجب أن تحرك استطلاعنا إلى درس الطاقة الذرية أو زراعة القطن كما تحركه إلى تقدير ألوان الجمال فى الطبيعة : القمر فى الريف والشمس فى البزوغ والبحر والقفر والجبل والسهل . لأن هذا الكوكب كوكبنا ويجب أن نستمتع بما فيه من روعة الطبيعة ومجدها .

والحياة الفنية تحتاج قبل كل شيء إلى درس الفنون وإلى ترقية الإحساس الفنى بحيث نسلك ونصرف ولنا فى كل ذلك مأرب فنى . حتى إذا سرنا فى حديقة استمتعنا بالزهور وهى على شجرتها فى اشراقها وإيناعها دون أن يبعثنا روح الاقتناء على بترها وقطفها .

ويجب أن نتعود قراءة الجريدة والمجلة والكتاب كما نتعود القهوة والشاى

ويجب أن نزداد رغبة فى امتلاك هذا الكوكب نفسياً وذهنياً وفنياً كلما ازداد هو تقلصاً بالمنتجات الجديدة حتى

تسبح آفاقنا ، حساً وذهناً ، فلا تضيق بحدود القطر أو القارة بل .
تشمل شئون العالم كله والبشر جميعهم .

ثم يجب ألا يغيب عنا أن التربية البشرية تخاطب الذهن .
أى تزيد الوجدان حتى تعيش في يقظة ونشاط زيادة هذه اليقظة
بتعلم المعارف والفنون . ولانعيش ذاهلين ذهول الحيوان الذى
تسوقه غرائزه . والفرق كبير بين الذهن اليقظ والذهن الذاهل وهو
يعود فى الاغلب إلى عادة القراءة . وكذلك الفرق بين شيخ هرم
قد خرف أو تبدل ذهنه ، وبين شيخ لا يزال له حدة وفتوة ويقظة
وذكاء ، يعود إلى أن الاول لم يتعود القراءة ، وأن الثانى
قد تعودها . والقراءة تجعل الكلمات مألوفاً فى الذاكرة سهلة
الاستحضار . ولما كانت المعانى مجسمة فى كلمات فان من البعيد
جداً أن نجد رجلاً يهرم ويتبدل ذهنه مادامت الكلمات حاضرة .
معدة لتبليغه

ومن هنا القيمة العظمى لصحة الشيخوخة من تعود القراءة
لأن الذهن يمرن على الفهم بالقراءة كما يمرن الجسم على الحركة
بالرياضة وتبقى هذه المراتة إلى الشيخوخة

كذلك يجب أن تكون تربيتنا موسوعية . أى يجب أن نلم
بجميع المعارف البشرية . وقد أحدثت لنا القنبلة الذرية وجدانا
بهذا الاحساس . وصحيح أنه يجب أن تكون لنا بؤرة أى

نقطة للتعلم والتخصص في المعارف . ولكن يجب أن نتشبع من هذه البؤرة العميقة إلى التوسع في الافاق الذهنية الرحبة . كما يجب أن يكون كل منا سقراطياً أى يعرف أنه لا يعرف . فيدرس العلوم والفنون والآداب والفلسفات ويبقى على هذا حتى يموت » وعلى صدره كتاب ، كما قيل عن الجاحظ

وفي المستقبل القريب ، بل القريب جداً ، ستتغير التربية من التعليم للحرفة إلى التعليم للحياة . وعندئذ نتجه نحو استخدام فراغنا الذي سيزيد عاماً بعد آخر ، وكثير مناحي في عصرنا هذا يستمتعون بفراغ يبلغ أربع أو خمس ساعات كل يوم . وعندئذ ستكون مشكلة التربية : كيف يتصرف الشاب أو الفتاة بهذا الفراغ وكيف يلتفع به ويستمتع ؟

وهذا السؤال يعود بنا إلى النعمة التي نفتأ نعزف بها وهي أننا يجب أن نعلم الناس كيف يعيشون الحياة المليئة وكيف يتعمقون في حياتهم ولا يقنعون منها بالعيش على سطحها أو هامشها ، نعلمهم أن غاية التربية أن يحيووا وليس أن يحترفوا . ونحرك فيهم العقل الاستطلاعي اليقظ الذي يشتهى المعارف ويعرف أيضاً أين يبحث عنها ويجدها ، ونعلمهم أن هدف الحياة : أجل ، هو الحياة في تعمق وتأنيق . وليس هو الحرفة أو المال أو التفوق

— ٣٢ —

وأخيرا نقول إن التربية الحقيقية هي التربية الذاتية . فلا
 يئأس أحد لأنه لم يمتز بتعليم جامعى أو لأن ظروف حياته
 الماضية لم تهيه له الفرص للدراسة ، لأنه يستطيع ان يشرع
 فى أى وقت وان يضع البرنامج الدراسى الذى تحتاج إليه تربيته
 . وهو اقدر انسان على وضع هذا البرنامج إذ هو الوحيد الذى
 يعرف حاجاته وكفاءاته

القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية

نحن نعيش في المجتمع المتمدن بدستور أخلاقي نأخذه كله أو ٩٩ في المئة من العائلة التي نشأنا فيها والشارع الذي مارسنا فيه اختبارات الطفولة ومن زملاء المدرسة والحرفة ومن غير هؤلاء ممن تحملنا حياتنا الحرفية أو الاجتماعية أو السياسية على الاحتكاك بهم. ونحن نزن الرذائل والفضائل بميزان هذا المجتمع ونأخذ بالقيم التي يعينها لنا.

وكثيراً ما نأخذ بقيم وأوزان فاسدة لأن المجتمع الذي نعيش فيه فاسد. وكثيراً ما يخفى علينا هذا الفساد فتندفع في التيار لا نقف ولا نتردد. ولكن أحياناً نقف ونتردد. وعندئذ يكون التقلقل والبحث والتجديد. ثم تكون قيم وأوزان جديدة والقيم والأوزان إما أن تكون اجتماعية وإما أن تكون بشرية. وإذا كان المجتمع راقياً كانت كل أو معظم أوزانه بشرية. ومثال الأوزان البشرية استنكار القتل والفقر والمرض والجهل وصيانة الصحة ومكافحة المرض. وتنوير الذهن. بالمعارف وتوزيع الثروة بحيث لا يكون فقر مؤذ ولا ثراء مبطر. ومثال الأوزان والقيم الاجتماعية التزين واقتناء القصص والضياع والتفاخر بالولائم واهبة العرس أو المأتم ونحو ذلك.

وكى نزيد الايضاح نفرض أن صديقاً عائلاً مات وترك زوجة وجملة أولاد . فالرجل الذى تغلب عليه الأوزان والقيم الاجتماعية سيحضر المآتم ويسير خلف الجنازة ويحضر الصلاة ويعزى أسرة المتوفى ثم يعد نفسه قد أنجز جميع واجباته . وربما قد يبالغ فى هذه الواجبات فينعيه فى الجرائد . ولكن الرجل الذى تغلب عليه الأوزان والقيم البشرية قد يهمل كل هذه الواجبات ثم يبحث عن حال الأرملة وأولادها فاذا وجد أنهم فى حاجة إلى المال تبرع من جيبه وجمع من غيره ما يقيتها . ثم هو يرعى الأولاد بالنصيحة ويهيئ لهم وسائل التعليم ويرعى العائلة تلك الرعاية الاقتصادية التى فقدتها بموت العائل .

ومن هنا نعرف أن الضمير الحسن هو الضمير البشرى وليس هو الضمير الاجتماعى .

ومن هذا المثال الذى ذكرناه نستطيع أن نتوسع فنقول : إن للصحة قيمة بشرية مطلقة . ولكن للبسال ، بعد أن يتجاوز حداً ما ، قيمة اجتماعية فقط . والشاب الذى يلبس فى الفتاه جماها إنما يلبس قيمة بشرية ولكنه عند ما يلبس ثراها إنما يلبس قيمة اجتماعية . ومن هنا أيضاً نقول أن الزواج قيمة بشرية ولكن أبهة العرس وجهاز العروس ومحو ذلك تعد من القيم الاجتماعية .

وكثيراً ماتستهلك القيم والأوزان الاجتماعية بمجهودنا وصحتنا كما تحول بيننا وبين القيم البشرية . كأن نندفع في جمع المال فنفقد صحتنا قبل الخسائر أو الستين لأن المجهود في هذا الجمع كان أكبر مما نتحمل . وفي الوقت نفسه حال هذا الجمع دون العناية بترقية شخصيتنا وتنوير ذهننا ، وهما من القيم البشرية . وكثير من الناس يغمروهم المجتمع بقيمه وأوزانه فلا يرتفعون فوقها . ولذلك تجد أن كل اهتمامهم ينحصر في شراء اتومبيل من الطراز الجديد أو يغمروهم الهم والنكد لأهم فقدوا صفته التجارية . مع أن زيادة ألف جنيه أو نقصها في حساب البنك لن يضرهم

ومن هنا ذلك الرجل المحموم بالنجاح ينفق كل مصادره الحيوية في التفوق في حرفته . ثم يفشل في عائلته أو مجتمعته ولا يدري أن النجاح يجب أن يكون كلياً يشمل العائلة والمجتمع والحرفة والفراغ . وكثير من الأمراض النفسية الفاشية في أيامنا تعزى إلى الاندفاع في هذه القيم الاجتماعية دون التفكير في القيم البشرية . وذلك الرجل الأجوف ، الذي تحدث عنه الشاعر البيوت إنما هو رجل قد غمره المجتمع بقيمه وأوزانه ففنى كلمة الامبراطور ماركوس اوريليوس حين قال أن أعظم

ما يشاق إليه ويتمناه في هذه الدنيا كسرة من الخبز مع قطعة
من الجبن يأكلها تحت ظل شجرة .

والمحك الذى يفصل بين القيمتين والوزنين أن نسأل عند
ما نسأل عن شخص ما : ما هو ؟

فاننا هنا نسأل عن قيمته البشرية . هل هو جميل ، سليم ،
مثقف ، صادق ، أمين ، سعيد ؟

وحين نسأل عن قيمته الاجتماعية نقول : ما عنده ؟
فنجيب بأن عنده منزلا به أثاث فاخر أو عنده ضيعة ،
وانوميل وعشرة آلاف جنيه في البنك ولقب بك الخ .

والحياة الفنية تقتضينا التمييز بين القيم وأن نجعل للقيمة
البشرية المكانة الأولى في جميع اعتباراتنا سواء في أنفسنا أم
في غيرنا . والرجل الطيب هو في النهاية الرجل البشرى وليس
الرجل الاجتماعى أى الرجل الذى يتعمق ويصل إلى الجذور
وعند ما تتأمل الأنبياء بل كذلك الفلاسفة والادباء ، نجد
أن كل اهتمامهم كان منصرفا إلى تغيير المجتمع بوضع القيم
البشرية مكان القيم الاجتماعية

الاستغناء أم الاقتناء

نحن نعيش في مجتمع « اقتنائى » نشأ فيه منذ الطفولة على أن هذا لى وهذا لك . وعلى أن أحدا يسر بأن يكون له أكثر مما للآخر . ثم نشب بعد ذلك فزداد رغبة فى الاقتناء واندفاعا نحو الامتلاك ، لأن العادة قد أصبحت عاطفة ومزاجا . ونعيش طوال حياتنا ونحن فى تعب ، لأننا لم نقن كما أقتنى فلان الذى كنا نعرفه أقل ثروة منا . ونعيش بين جيراننا فى مباراة رقبهم حين نخرج لإحدى بناتهم فى ثوب زاه ، أو حين نقرأ فى الصحف عن الترقيات والعلاوات ، فنمتلى حسداً لأن هذا الشخص الذى كنا على الدوام نتفوق عليه أو على الأقل نساويه قد ارتفع وارتقت أحواله دوننا .

ونحن نلشد الاقتناء والامتلاك لا لأننا فى حاجة إلى زيادة ولكن لأن المجتمع « الاقتنائى » الذى نعيش فيه قد غرس فىنا هذه العواطف . فأكسبنا هموما شخصية تنزع بنا إلى الجهد وتحمل المتاعب كي نتفوق فى الجمع ونستمر فى الزيادة . ونبقى على ذلك طوال حياتنا ، حتى اننا نرى ناسا قد تقدمت بهم السن وأثقلهم الشيخوخة ومع ذلك يتعبون ويقلقون بشأن مقتنياتهم وعقاراتهم . فهم فى هموم دائمة وحسابات لا تنقطع ، حتى

لميتساءل الانسان وهم في هذه الحال : هل هم يملكون هذه العقارات أم أن هذه العقارات هي التي تملكهم ؟
وأعظم ما يعود من الضرر على هؤلاء ، ان هذه الهموم الشخصية تحول دون الاهتمامات العامة حتى ليقول لك أحدهم أنه لا يملك الوقت كي يقرأ الجريدة ، لأنه مشغول بأعماله التي لا تترك له فراغا .

وقد أصبحت اعباؤنا الخاصة ثقيلة حتى اننا جعلنا الفرار منها سنة . فنحن نصطاف ، لا لأننا نرغب في تغيير الجو من الحر إلى البرودة ، بل لأننا نحب ان نفر من هذه الاعباء . فالتغيير هنا سيكولوجي وليس مناخيا . وعندما نتأمل المصطافين في رأس البر أو الاسكندرية ، نجد انهم ينطلقون من القيود ويحاولون ان يتصلوا بالطبيعة في بساطة من التكاليف والأعباء تشهد على انهم كانوا متعبين بما كانوا يقتنون من ملابس غالية مرهقة في المدن

والحق اننا عند ما نتأمل معيشتنا في وسط متمدن ، وما يجلبه علينا هذا الوسط من تكاليف وما يطالبنا به من مطامع نجد اننا جميعا في حال سيئة من القلق النفسى ، مسوقين بأوهام الاقتناء كما لو كنا مسخرين . وهذه الأوهام هي في نهايتها مصطلحات ليست لها قيمة بشرية ، وهي لا تزيدنا إلا أعباء وهموما

إذ نستطيع أن نستغنى عنها . فقد استغنى شبابنا مدة الحرب
الآخر مثلًا عن الطربوش ، ولم يجدوا سوى الراحة والصحة
عند ما تخلصوا من هذا التكليف . وسبق أن استغنت الفتيات
أيضا ، قبل الحرب ، عن الجوارب ولم يشعرن إلا بالراحة
والزيادة في الصحة بهذا الاستغناء . أجل . . . إزداد الجميع صحة
لأن الاستغناء عن الطربوش والجوارب ، قد زاد في تعرض
الأعضاء لأشعة الشمس ولاثرها الصحي في تنبيه الجسم .

وأعود فأقول أن معظم ما نبذل من مجهودات عظيمة ،
بل أحيانا مجهودات مضية عمية ، في الاندفاع نحو الاقتناء إنما
هو مصطلحات اجتماعية لا أكثر ، أى ليس لها في نفوسنا حاجة
طبيعية . فحاجتنا الطبيعية قليلة جداً . وقد قنع غاندى مثلا
بأن يعيش بنحو ثلاثة جنيهات أو أربعة في العام كله . فهو
يكتفى من اللباس بقطعة من القماش غير مخيطة يتلفع بها ، بينما
يحتاج أصغرنا إلى عشر قطع كي تغطي بها جسمه كأنها ضمادات
مجروح ، أو كأنها خرق ملونة لمهرج على مسرح !

وإذا كنا نحن نستبعد أو نستغرب معيشة غاندى ، فليس
ذلك لأن غاندى مخطئ ، بل لأننا نعيش في أسر مصطلحات
اجتماعية قد تغلغلت في نفوسنا حتى أضحت عقائد وعواطف
والرجل الحكيم هو الذى يعرف كيف يستغنى دون أن

تنقص حاجاته الضرورية . ومن هنا قيمة الدعوة إلى الحياة البسيطة ، أى إلى بساطة العيش . وهذه الدعوة هى نداء قديم يتردد صداه عبر التاريخ منذ آلاف السنين . وكلنا نذكر « ديوجينيس » الاغريقى الذى لقبه الاسكندر المقدونى وسأله عما يستطيع أن يؤديه له من مساعدة . فأجاب بأن كل ما يطلبه إنما هو أن يتنحى عنه حتى لا يمنع أشعة الشمس عن جسمه . ونحن نقرأ هذه النادرة كأنها نكتة . ولكن لماذا ؟ أليس أمامنا البرهان على أن ديوجينيس كان على حق ، وكان سعيداً برميله الذى كان ينام فيه ، فى حين كان الاسكندر شقيماً بما جلب عن نفسه من هموم وأعباء ؟ ألم يعتمد الاسكندر إلى الانتحار وهو فى الثلاثين ؟

كان الاسكندر يندفع بروح الاقتناء إلى الفتح والحرب . وكان ديوجينيس يندفع بروح الاستغناء إلى العيش فى برميل . وكلاهما مسرف . . ولكن اسراف ديوجينيس أقرب إلى الحكمة من اسراف الاسكندر .

وغاندى فى عصرنا يجرى على مذهب الفيلسوف الاغريقى ويوجد مذهب الفاتح المقدونى ، وهو حكيم فى هذا السلوك . وقد كان جان جاك روسو أول من بصر بحب التكليف

المرهقة التي تفرضها علينا الحضارة . رغم أن حضارة العصر
الذي كان يعيش فيه ، هي البساطة والسذاجة بالمقارنة إلى
ما نعيش نحن فيه . فقد دعا هو دعوة الريف وتجنب المدينة .
واسكن مدينته ، حوالى سنة ١٧٧٠ ، كانت قرية هادئة بالمقارنة
إلى المدن التي نعيش فيها الآن . فلم يكن فى مدينته ترام أو سيارة ،
أو راديو ، ولم تكن مضار المباراة وما تجلب من حسد وهزيمة
وقلق جزءا من مائة مما يكابد أبناء المدن فى هذه الأيام ، وقد
ترك بعده ، ثور ، الأمريكى المدينة الأمريكية وعاش فى الغابة
وترك ادوارد كاربنتر المدينة الانجليزية وعاش فى الريف .
وفعل كذلك تولستوى وغاندى

وليس هؤلاء شاذين ، لأننا حين نقارن بين حياتنا وحياتهم
من حيث القيم البشرية وسلام النفس والفراغ للتأمل والراحة
نجد أن الحكمة فى جانبهم والجنون فى جانبنا
فقد عاشوا بالاستغناء ، فى حين نعيش بالافتناء . وأمتازوا
بأنهم نفضوا عن نفوسهم وأجسامهم وضمائرهم جبالا من
الواجبات والاثقال التى تنوء بها ونزعم أننا بفضلها سعداء مع
أن الحقيقة أننا مسخرون فى الجمع والافتناء ، ثم فى زيادة الجمع
والافتناء . وسنظل على هذا المنوال حتى نموت بالنقطة أو السكتة
مجهودين مرهقين

— ٤٢ —

وأسوأ ما فى هذه الحياة التى نعيشها ونحن نعدو وراء
المطامع وكأننا نجرى فى سباق ، أننا لانعرف ماذا نفتنى ولن
نفتنى . ثم هذا العدو فى هذا السباق لا يتيح لنا فرصة الوقوف
كى نتأمل ونفكر . والواقع أن غريزة الاقتناء تدفعنا مسخرين
فلا يلتصع لنا ذكاء ولا يتردد فى رؤسنا خاطر ولا تتسائل : لماذا
كل هذا ؟



نعيش لنحسب أم نعيش لنحيي

غاية الحياة هي الحياة . وليست غايتها أن نكون أثرياء
أو أصحاباً أو علماء أو سعاداء . لأننا إذا كنا نطلب الثراء أو الصحة
أو العلم أو السعادة فأنما لأن كل واحد من هذه الأشياء يؤدي
في النهاية إلى الحياة المثلى التي نتمناها .

فيجب لهذا السبب ألا نخطئ الهدف . وهو أن نحى لاجل
الحياة . وإذا نحن جعلنا هذا الهدف نصب عقولنا فأننا لن
نشرف . إذ نجد أنه على الدوام يصحح ويقوم انحرافاتنا .

وأعظم ما نفع فيه من انحراف بل أعوجاج هو أن المجتمع
يؤثر فينا بأوزانه وقيمه فيحملنا على أن ننسى أن هدف الحياة
هو الحياة . حتى أننا نجد كثرة الناس ، بل ربما كلهم ، أي كلنا ،
نذهب إلى عادات فكرية ونفسية لو أنها امتحنت في نزاهة وذكاء
لكانت أقرب إلى الجنون والشذوذ منها إلى التعقل السوي .

واسوأ هذه العادات ، عند الطبقة المتوسطة والثرية ، هي
أن نحيل الحياة إلى حساب . ذلك أن أحداً ينسى أنه يجب
أن يعيش فيستمتع بحياته ذكاء وصحة واجتماعاً ومعرفة وحكمة .
ينسى كل هذا ثم يرصد وقته وجهده في الحساب . وما هي

زيادة دخله هذا العام على دخله في العام السابق؟ وماذا يستطيع أن يشتري بما أذخر مما يزيد هذا الدخل؟ الخ
وأحيانا تستحيل هذه العادة إلى جنون . فلا يشغل الرأس إلا بها ولا يتحرك النشاط إلا لأجلها . حتى أننا لنرى لصاحبها إذ نجد أنه ما سُرَّ قد استرقه الجمع والاقتناء فلا يعرف لذة الطعام أو الشراب أو التنزه أو الاجتماع بالأصدقاء . وقد يسأل أحدا عند ما يتأمل هذه الشخصية ويقارنها بشخصية أخرى . كثيراً ما يحتقرها مثل شخصية المستهتر في الشراب أو النساء : أيهما أفضل ؟

وليس هذا السؤال لأن الاستهتار حسن . ولكن لأن قصر الحياة على الحساب بالجمع والطرح والزيادة والنقصان في الاقتناء أسوأ من أي استهتار . لأن أقل ما يقال في المقارنة هنا أن المستهتر مستمتع ولكنه مبالغ مسرف في الاستمتاع إلى حد الضرر . ولكن هذا الحاسب لا يستمتع بتاتا إلا كما يستمتع النيوروزي أي المريض النفسي بعادة تملكته وامتدبت به وهي بعيدة عن العقل بل متمردة عليه .

ونحن في عصرنا الحاضر نحتاج إلى كاتب مثل د. هـ. لورنس كي يبين لنا أن واجبنا الأول في الدنيا هو أن نعيش . فقد ألف هذا الكاتب قصته « عاشق الليدي شاترلي » واسرف في دعوته

إلى الاستماع الجلسى باعتبار أنه أهم من الاعتبارات الاجتماعية التي تنكر علينا ملذاتنا وتشغلنا بألوان أخرى من النشاط الذى تنحرف به ونزيع عن هدف الحياة وهو ان نحى ونستمتع . وليس شك انه اسرف بل انه وقع فيما اراد ان يحذرنا منه . إذ هو جعل الاستهتار الجلسى هدفاً ، وكأنه اعتقد ان اللذة الجلسية هى كل ما فى الحياة . وهذا خطأ فاضح .

وصحيح ان الاستهتار الجلسى ، فى القيم والأوزان الصحيحة ، خير من قضاء العمر فى الحساب لاقتناء المال وزيادته . ولكن الاستهتار على كل حال اسراف . ثم ان اللذة الجلسية جزء من الحياة وليست الحياة جزءاً من اللذة الجلسية . فاذن نحن نحرمنا الحياة المثلى فاننا بلا شك لاهمل الملذات الجلسية ولكننا ايضا نضع هذه الملذات فى مكانها فلا تتجاوزها وتطغى على حياتنا كلها . إذ ان هناك ملذات أخرى تحتاج اليها الحياة المليئة الحافلة السامية مثل الصحة والمعرفة والصداقة والذكاء والحكمة .

واسراف لورنس فى الاكبار من شأن اللذة الجلسية انما هو مبالغه يرمى بها إلى تأكيد الظاهرة الجنونية الحاضرة فى اندفاع الناس إلى جمع المال وقضاء العمر فى الحساب . حتى اننا لنجد رجلاً فى الستين او فى السبعين ليس له من هم سوى الدفاتر يراجعها والاهتمام بدخله والتفكير فى شراء عقار جديد او نحو

ذلك . مع أن كل ما بقي له من العمر قد لا يتجاوز سنة أو سنتين .
هو أحوج فيهما إلى أن يعرف ما جهل أو بعض ما جهل قبل
أن يغادر هذه الدنيا .

ووظاة المجتمع علينا هي التي تسوقنا إلى أن نستبدل الحساب
بالحياة . وإلى أن نسخر أنفسنا للجمع والاقتناء دون الاستمتاع
بالعيش . وعادات المجتمع هذه ترسخ في نفوسنا بحيث نعيش
في هذا الحساب كما لو كنا نملا أو جرأداً نشط نشاطاً غريباً ،
لا نعرف غايته .

والرجل الذي ارتفع إلى أن يجعل من حياته فناً يجب من
وقت لآخر أن يسأل نفسه : هل أنا أعيش للحياة أم أن قيم
المجتمع وأوزانه قد غمرتني وسخرتني حتى صرت آلة جمع وطرح
للحساب أى لزيادة المال والدخل فقط ؟

ويجب على كل منا أن يذكر نصيحة المسيح لنا وهي أن
نعيش كالأطفال أى أن ننزل على القيم البشرية الساذجة نحب
الجمال والاقتحام ونستطلع الدنيا كما يستطلعها الطفل .

العمل والفراغ

كي يكون نجاحنا في الحياة كلياً شاملاً وليس جزئياً خاصاً
يجب أن نواجه ونحل أربع مشكلات أصلية هي :

١ — مشكلة العمل الذي نرتزق به

٢ — مشكلة الفراغ الذي نقضيه مختارين

٣ — مشكلة الزواج والعائلة والأولاد

٤ — مشكلة المجتمع الذي نعيش فيه وتنظيم علاقاتنا المختلفة به
والإهمال في واحدة من هذه المشكلات يتعسنا ويجعلنا
في خصومة دائمة إما مع غيرنا وإما مع أنفسنا بحيث نعيش في
غير يسر كأننا نكافح تياراً بلا هدف يقتضى المكافحة .
والقارئ لهذا الكتاب يعرف أننا نعزف على لحن يتكرر هو
أن النجاح يجب ألا يقتصر على ناحية أو جملة نواحي من الحياة
وإنما يجب أن يكون قبل كل شيء نجاحاً في الحياة كلها

ومشكلة العمل الذي نرتزق به تبرز في عصرنا بوضوح واضحاً
لأن العلم لم يستخدم في الانتعاج إلى الحد الذي تتوافر فيه
حاجات الناس ، ولو استخدم لانتقلت بؤرة الاهتمام من
الارتزاق بالعمل إلى الإلتفاع بالفراغ بل كذلك كانت بؤرة
الاهتمام في المدارس والجامعات تنتقل هذا الانتقال

وإلى أن نصل إلى هذه الحال التي نرجوها يجب أن نجعل
 تالاهتمام بالعمل الارتزاقى فى مقدمة شئوننا التى تتدرب لها
 وننابر على تفهم تفاصيلها . وأعظم ما يجب أن نهتم به هنا هو
 اختيار العمل بحيث يلائم ميولنا وكفاءاتنا معاً ، لأن معظم
 التعس الذى يعانىة الناس من أعمالهم يعود إلى أنهم لم يختاروها
 بل قضت المصادفات والظروف بأن « يقعوا » فيها وأجبرتهم
 حاجات العيش على ممارستها كارهين أو متبرمين . وهذه الحال
 تجعلهم يتبرمون بالحياة كلها أى يكرهون المنزل والنادى
 والأصدقاء والكتب لأنهم يكرهون أعمالهم ، كأن حياتهم قد
 غشيت بغشاء من التبرم والسخط

وعلى هذا نقول ان اختيار العمل الملائم الذى نجبه
 ونستطيعه هو نصف الانتصار فى معركة الارتزاق بل ربما
 أكثر ، لأننا بعد ذلك ننشط إلى الخلق والمثابرة والدرس .
 ونحن فى العادة لا نلشروع فى الاختيار قبل السادسة عشرة من
 العمر ، ولذلك نحتاج قبل ذلك إلى الارشاد لأننا نجهل ميولنا
 وكفاءاتنا ونحتاج إلى من يحللها ويخبرنا عن حقيقتيهما
 وكثير من التخلف الذى يصيب الموظف يعود إلى كراهته
 لعمله لأنه أساء فى اختياره فهو يتهاون ويتشاوب ويكره رئيسه
 او يعتقد أنه يترهقه بالواجبات . بل أحياناً يحس صداعاً بسبب

هذه الكراهة وهو يتعلل بهذا الصداق لطلب الإجازات او
للزيادة في التهاون والتكاسل حتى تسوء العلاقات بينه وبين
رؤسائه

وعلاج هذه الحال ، إذا كانت الوقاية لم تتخذ من قبل ، ان
يكون باستخدام الفراغ بحيث يعرض من سأم العمل .
وذلك بأن نمارس هواية ما تشغلنا وتعوضنا من النفور من العمل
وتعيد الينا انزائنا . ويجب لهذا السبب ان يكون لكل منا هواية
بل هوايات تتوافر بها اهتماماتنا ، وعندى ان اعظم هذه
الهوايات هو القراءة وتعود الدرس ، لأنها الهواية الباقية إلى
سن الشيخوخة وهى فى ظاهرها هواية واحدة ولكنها فى
صميمها جملة هوايات ، لأن الذى يعشق الدراسة يجد نفسه
مشغولا بألوان مختلفة من الاهتمامات يقرأ الجريدة والمجلة
ويناقش فى السياسة وقد يكافح لمذهب فيها . كما يقرأ الكتب
ويقتنيها ويضع المشروعات لدراسات جديدة فيتجدد بذلك
شباب ذهنه وتوسع آفاقه العملية والأدبية . ومثل هذا الشخص
لن يسأم فراغه ولن يقضيه ذاهلا فى غيبوبة نفسية على القهوات
ولن يقع فى العادات السيئة كالتهاك على التدخين او الشراب
والرجل الموفق هو الذى يجعل هوايته مرتزة . ولكن
يجب أن نعترف ان هؤلاء قليلون فى مجتمعنا . حتى الأديب

الذى يرزق بقله لا يكتب على الدوام ما يهوى . لأن الضغط
الاقتصادى يحمله فى كثير من الأحيان على ألوان من الإنتاج
الكفى لا الكيفى يهدف منه إلى الكسب لا إلى الفن
ولهذا نحتاج جميعنا إلى أن يمارس كل منا هواية ما تحل بها
مشكلة الفراغ ، ومتى حللنا هذه المشكلة فإن العمل الارتزاقى
يسهل علينا فلا يكون ذلك المفض الذى نراه فى كثير من
الموظفين وهم إلى مكانهم يتجهمون لا وراقتهم ورؤسائهم



العائلة والمجتمع

النجاح العائلي أكبر من النجاح الحرفي . ويجب أن يكون كذلك لأن القيم العائلية بشرية في حين أن القيم الحرفية اجتماعية . والعائلة هي زوجة وأولاد وبيت . والرجل الذي وفق إلى اختيار زوجته واستمتع بحبه لها وعنايتها به وأعقب أولاداً وتعب لهم حتى نموا وأبنعوا أمام عيليه ، مثل هذا الرجل قد حظى بنصيب عظيم من متع الحياة .

واختيار الزوجة هو ، مثل اختيار العمل ، نصف المعركة . لأننا إذ لم نحسن الاختيار تعرضنا لألوان من التعس كنا نستطيع تجنبها . وأعظم ما يتيح لنا الاختيار الحسن أن نطيل مدة الخطبة حتى نعرف بالاختلاط شخصية الفتاة التي سنتزوجها . وواضح أن الخطيبين يحرصان مدة الخطبة على أن يظهر كل منهما للآخر بأحسن مظهره . ولكن حتى مع هذا الحرص يستطيع كل منهما أن يفطن إلى الاتجاهات والميول في الآخر ويجب أن يتجنب كل منهما اغراء الفتنة . فقد يقتن الشاب بنعمة الصوت أو زرقة العينين أو تورد الوجنتين في خطيبته . ثم ينخدع بهذه الصفات إلى الانزلاق في الاختيار السيء . وخير ما يكفل الاختيار الحسن أن يسأل الشاب نفسه : كيف تكون

- ٥٢ -

معاً ، أنا وهذه الفتاة ، فى بيت وحدنا بعد خمس سنوات ثم بعد عشر سنوات ؟ كيف نتحدث وكيف يعاشر أحدهنا الآخر وكيف يكون أولادنا معنا ؟

وخير للخطيب ان يختار خطيبته بوجدانه أى فى تعقل ودراية من أن يزلق فى الاغراء الجلسى . والحب الضعيف مع الأمل فى نموه فى المستقبل يفضل الحب العظيم الذى لن ينمو . ويجب هنا الانسى ان الحب هو خير الاقتتان . الأول وجدانى تعقل . والثانى غريزى شهوى . بل هما أحياناً متناقضان بحيث إذا زاد الحب ضعفت الشهوة .

ويجب أن يكون للقيم والاوزان البشرية التفضيل على القيم والاوزان الاجتماعية فى اختيار الزوجة . فالجمال والصحة والذكاء قيم بشرية ويجب أن تفضل لذلك على الثراء والمكانة والثقافة لأن هذه قيم اجتماعية . ولكن من الحسن ألا يختار الشاب فتاة من غير طبقته الاجتماعية أو دون ثقافته . لأن التفاوت هذا يعنى تفاوتاً فى الذوق والعادات وللا اتجاهات . وإذا كان الاختلاف صغيراً فان النتائج لن تكون خطيرة . ولكنها تفدح إذا كان الاختلاف كبيراً . وفى بلادنا ، حيث تتجه العناية الى تربية الشبان دون الفتيات فى أغلب الحالات ، نجد هذا

الاختلاف واضحاً. ولذلك لابد من التسامح ولكن مع النصيح للزوج بأن يعنى بتربية زوجته وتلميحها إلى ترقية شخصيتها وزيادة ثقافتها.

والتوفيق بين الزوجين لا يتأتى مع الحماية أو الحمى من أية الناحيتين ولذلك يجب أن يعيش الزوجان مستقلين في بيت منفصل عن الآباء والأمهات . فإذا لم يكن هذا ممكناً للظروف الاقتصادية مثلاً فيجب على الأقل أن تعرف هذه الحقيقة وأن يؤسس البيت مع اعتبار هذه « الضرورة » التي تواجه كما لو كانت صعوبة قهرية لا مفر منها . وبهذا الاعتبار يمكن أن تواجه المواجهة السليمة وأن توزن الوزن الصحيح .
وكل ما قلناه عن الشاب ينطبق أيضاً على الفتاة .

ويجب على الزوجين أن يجعلوا من البيت متحفاً وليس مأوى فقط . فإذا جاء الأولاد صار معبداً حراً للجميع آباءً وأولاداً فلا سيد ولا مسود . ويجب أن تقتنى التحف الفاخرة وتبأى الغرف بأغلى الأثاث حتى يجذب البيت الزوج ويصير مرتكز نشاطه واهتمامه . كما يجب أن يكون البيت مضيقة راقية يجد فيه الزائرون متعاً مختلفة من الرسوم الفنية والموسيقى العالية إلى السمر المنير والمناقشة المربية .

والنجاح في المجتمع يأتي بعد النجاح في العائلة وهو يحتاج إلى

أن ندرس المجتمع بتبع السياسة العامة ، عالمية وقطرية ، وإلى أن نطابق بين مصالحنا ومصالحه حتى لا يكون تنافر ، هذا التنافر الذى يبلغ القمة عند المجرمين . لأن المجرم يتصرف وهو على غير وفاق مع المجتمع ويصل إلى غايته وهو على تنافر مع الأساليب الاجتماعية . .

والذواح الاجتماعى يقتضى العناية بالاصدقاء ورعايتهم . وتجنب التفريط فى صداقتهم . وقد يكون الاهتمام إلى صديق وملازمته أمتع متعة فى الحياة .

والمجتمع يحتاج إلى المزاج الانبساطى أى مزاج ذلك الشخص الذى يحب الاختلاط ويعشو الاندية والمطاعم والمسارح والمصايف ويميل إلى الزيارات

وصاحب المزاج الانطوائى ينفر من هذه الانبساطية ، ولكن عليه أن يتمرن على ممارستها إلى حد ما . كما يجب على صاحب المزاج الانبساطى أن يتمرن على ممارسة الخلو والقراءة والدراسة والتفكير إلى حد ما .

والخلاصة أنه يجب على كل شاب أو شابة أن يسأل نفسه : هل أنا نجحت فى حل هذه المشكلات الأربع : الحرفة والفراغ والعائلة والمجتمع ؟ وإلى أى حد بلغ نجاحى ؟

الرجل والمرأة والزواج

نحن نعيش في بيوتنا أكثر مما نعيش خارجها ، ولن تنهأ حياتنا لهذا السبب إلا إذا عنيينا أكبر العناية بأن نجعل بيوتنا خاوية لصنوف الراحة والرخد . وحياة العزوبة هي حياة ناقصة قليلة الاختبارات والمتع . والمتزوج قد لا يطول عمره أكثر من الأعزب ولكن حياته أعرض . وهي أعرض بالمسرات والأحزان التي لا يعرفها الأعزب

ومعظم العمر نقضيه مع زوجة قد عرفناها في الأغلب بعد سن العشرين أو الثلاثين ، وقد عاش كل منا قبلًا في بيئة تختلف عن البيئة التي عاش فيها الآخر ، ولذلك ليس بعيداً أن نصطدم وأن تحفل الحياة الزوجية بالمتاعب

ولكن هناك ما هو أخطر من هذا ، ذلك أننا نعيش في مجتمع اقتنأى تحاسدى يجعل الأنانية فضيلة ويحملنا على المباراة واقتناء المال . ثم يشملنا هذا الروح فتعود الأنانية والرغبة في الخطف والاقتناء والحسد والحقد والبعد عن الحب والتعاون ، كل هذا يعود كما لو كان هو الطبيعة البشرية الأصلية . فإذا تزوجنا عاملنا الزوجة وفق ما تعلمنا وتربينا عليه في المجتمع ، فنطالب الزوجة بالخضوع ، ونطالبها بأن تخدم لذاتنا ، ثم نلتذ

ملذاتنا على انفراد نفسى وفي خطف ونهب كما كنا ، ولا نزال ،
نعيش فى المجتمع

وليس هذا المجتمع الذى وصفنا جديداً ظهر فى عصرنا ،
إذ هو قديم قد رسخت أخلاقه فى سلوكنا وتصرفنا ، وهو يشقى
حياتنا الزوجية . وله علامات تخفى أحياناً على الناقد فضلاً عن
عامة الناس . فان أنوراطية الرجل ورغبته فى أن تكون زوجته
أداة للذة يقابلها دلال المرأة وغيرها الجنونية من الاوهام
والحقائق . وكلاهما يسير بروح الاقتناء والخطف كما لو كان
كل منهما تاجراً يشتري رخيصةً لى يبيع غالياً

وأسوأ ما تلعناه من هذا المجتمع الأنانى التحاسدى
الاقتنائى الذى نعيش فيه اننا ننظر إلى المرأة جنسياً بدلا من
أن ننظر إليها إنسانياً . فهى امرأة فقط وليست إنساناً ، نعى
إننا نفتليها كى تخدم ملذاتنا وتغسل أولادنا فهى ليست الانسان
المعاون الصديق الزميل الذى نرافقه ونصادقه ، ولذلك كثيراً
ما تستحيل البيوت إلى مطاعم أو فنادق للأكل أو النوم فقط .
وهذا المنظر يوم الكسب للرجل ، ولكنه فى صميمه يعود عليه
بالخسار أيضاً حتى من ناحية اللذة الجنسية ، إذ هى فى هذا
النظام تنقلص إلى الخطف والنهب فتجربى وكأنها صرع تشنجى ،
أو كأنها طرب جنوفى ، يغمر الجسم فى عجل ثم ينطفئ فجأة

لذة عابرة خاطفة لا نذكرها بالحنان والحب والصدقة ولكن بالخطف وأحياناً بالقسوة والاعتصاب . وكثير من الشذوذات الجلسية لهذا لسبب يعود إلى المبالغة في الانسياق في الصفات الاجتماعية التي يطالبنا بها النجاح في الكسب والوجهة والتفوق . إذ أن هذه جميعها تحتاج إلى الخطف والنهب والقسوة والحسد والأناية بل أحياناً إلى الغش . والشذوذات الجلسية هي في صميمها غش .

واللذة الجلسية هي في صميمها وفي أسلوبها نقطة التبلور لاتجاهنا الاجتماعي وأخلاقنا الاجتماعية . فليذكر هذا كل شاب وكل فتاة .

ومن هنا الكثير من الرذائل التي تحسب في ظاهرها رذائل روحية ولكنها في باطنها رذائل اجتماعية . فان الشباب الذي يخشى أن يتزوج الفتاة المتعلمة إمما هو في صميمه يخشى المساواة التي لم يتدرب عليها في المجتمع . إذ هو نشأ في مجتمع قد غرس فيه الرغبة في التفوق والتسلط والأناية والخطف والخوف . فكيف يمارس كل هذه الصفات في حرفته ومعاملته وينساها في الزواج ؟ فهو يعامل زوجته تلك المعاملة الجيمة التي تعلمها من البغي حين كان يؤدي ثمن لذته بالقرش والمليم ويخطف هذه اللذة خطفاً . وهذه المعاملة ترسخ فيه فلا يعرف كيف يغيرها ، ولو أنه كان

قد نشأ بروح التعاون والحب والمساواة لكانت اللذة الجنسية نفسها لا تتم إلا بهذه الصفات، وعندئذ كانت تكون متبادلة هنيئة للزوجين .

ولهذا أصبح الزواج كأنه صفقة بيولوجية تتم بين الرجل والمرأة لا يسودها الحب والثقافة . أجل، الحب والثقافة، وكلاهما لا يعرفه الحيوان .

ولكن حتى المقارنة بيننا وبين الحيوان لا تدل على أن الكسب في جانبنا، لأن أقل ما يقال في الحيوان أنه يلساق بغريزته الساذجة الفطرية ولسكنا نحن نفسد هذه الغريزة بوجدان المجتمع الانفرادي القائم على الخطف والخوف والنهب والحسد والاعتصاب . فنحن لا نتعاون في اللذة الجنسية بل نتخاطف في طرب ماني وصرع وقى سرعان ما نفقدهما ونعود إلى ما يقارب اليأس والجود والنفور .

ولن يتحقق الهناء الزوجي إلا بعد أن يعيش السماء والرجال في تعاون وما يجلبه هذا التعاون من حب وأخاء ومساواة وطمأنينة وأستبشار بالمستقبل . لأن المجتمع الذي نعيش فيه في الوقت الحاضر يشقينا بالقلق، فنحن نقلق ونخاف، نخاف من الفقر والمرض والهزيمة في المباراة الاقتصادية والافلاس، وكل هذه الصفات تنتقل إلى العلاقة الجنسية، فتعود هذه العلاقة قلقة غير مطمئنة .

أى أن نظامنا الاجتماعى ينتقل بأساليبه إلى نظامنا الجنىسى .
 فإذا كنا نخاف من الدنيا ونهرول ونخطف ونقلق ونحسد ونؤثر
 أنانيتنا على مصلحة اخواننا فى المكتب والمتجر والسوق والمصنع ،
 فإنا ننقل كل هذه الصفات إلى العلاقة الجنسية ، فلا نستمتع
 بالغريزة الفطرية التى يستمتع بها الحيوان بل نفسدها بوجدان
 سىء من حياتنا الاجتماعية السيئة .

ولذلك محتاج ، كى تنهأ الحياة الزوجية وتزول الشذوذات
 الجنسية إلى مجتمع تعاونى سوائى يقوم على الحب وليس على
 المباراة ، أى يجب أن نعيش فى نظام اشتراكى وأن يتعلم الرجال
 والساء منذ ولادتهم إلى وفاتهم ، الاختلاط والتعاون والمساواة ،
 وأن نطمئن على عيشنا فلا يكون هناك قلق يغمر شخصيتنا
 ويحملنا على الهرولة والخطف : هرولة وخطف فى المجتمع
 يؤديان إلى هرولة وخطف فى التعارف الجنىسى .

فإذا تم هذا أى إذا تغيرت « الطبيعة ، البشرية ، وهى فى
 حميمها طبيعة اجتماعية ، وإذا تساوى الرجال والساء ، عمت
 الطمأنينة وزالت الرغبة فى التسلط . وعندئذ تنهأ الحياة الزوجية
 وترقى على أسس من التعاون والحب والثقافة ، فلا تكون
 غريزية كالحيوان ولا شقية بالوجدان الاجتماعى السىء الحاضر .
 وتخرج المرأة من انشويتها الضيقة إلى ميدان الإنسانية الواسع .

كيف نصادق زوجاتنا

الصدقة ضرورية لكل إنسان ، إذ أننا نجد من الصديق
سلوى وموانسة وانحيازاً نحتاج إليها في حالي الضيق والسعة على
السواء . . . ونحن نتخير أصدقاءنا عادة بحيث يتفوقون معنا في
الرأى ، أو يتكافأون معنا في الثقافة وأسلوب العيش . . . وبعيد
أن نصادق من نختلف معه في كل هذه الأشياء

وكثيراً ما نتجنب حتى أقرباءنا بل وإخوتنا إذا وجدنا أننا
لسنا وإياهم على وفاق في أسلوب العيش أو الرأى ، أو العقيدة ،
أو الثقافة ، أو الدرجة الاجتماعية

وفي مصر حيث لا يزال الاتجاه العام يميل إلى تمييز الشاب
على الفتاة في التعليم ، نجد أن التكافؤ الثقافى بين الزوجين معدوم
وأن الهوة بينهما كبيرة ، ومن ثم تكاد تنقطع بينهما أسباب
الصدقة .

والرجل قد يعيش مع زوجته نحو أربعين أو خمسين سنة .
وليس هذا العيش سهلاً إذا لم تكن هناك صداقة تربطهما .
ولذلك غالباً ما يتجه الرجل إلى خارج بيته حيث الأصدقاء من
الرجال يقاعدهم في القهوة ، أو فى النادي ، ويجد فيهم بديلاً من
الزوجة .

وفى أوروبات تعلم المرأة كالرجل تقريباً ، ولذلك يتكافأ الزوجان فى الثقافة ، فنصبح المرأة وإذا بها ليست زوجة فحسب ، بل صديقة لزوجها أيضاً . يشتااق كل منهما إلى رؤية الآخر ، ومجالسته ، ومحدثته ، ويخرجان معاً ، ويقرآن الكتب التى يشتريها أحدهما معاً ، ويناقشان موضوعاتها . .

وإلى أن نصل إلى هذه الحال ، أى إلى أن نسوى بين تعليم الشباب والفتاة ، بلا تفرقة أو تمييز ، نحتاج ، نحن الأزواج ، أو المرشحين للزواج ، إلى أن نرفع زوجاننا إلى مصافنا فى الرأى والمعرفة والثقافة ، وليس هذا بالامر الشاق كما يتوهم القارىء . والمهندس مثلاً لا يحتاج إلى تعليم زوجته دقائق الهندسة الآلية أو السكياوية . . والمحامى ليس بحاجة إلى أن يشرح لزوجته فقه القانون الرومانى . . والطبيب لا يحتاج إلى أن يدرس لها الفسيولوجية . . ليس هذا ضرورياً وإن كنا قد رأينا أزواجا استطاعوا أن يشركوا زوجاتهم حتى فى هذه الأشياء الفنية ! .

ولسنا فى صداقتنا لزوجاننا ، نحتاج إلى كل هذا وإنما نحتاج إلى أن نتحدث إليهن عن شئوننا المهنية ، حتى نثير استطلاعهن ونبعث فيهن الشوق إلى التعرف على أعمالنا .

وأولى من هذا وأسهل أن نجعل الجريدة ، والمجلة ، والكتاب

بعض أثاث البيت ، نشتريها في عناية ، ونختار منها الأحسن والأنافع ونقرأها مع زوجاتنا ونناقش ما فيها من شؤون سياسية أو اجتماعية . وبهذه الوسيلة يتقارب الزوجان تقارباً ذهنياً ، ويتفقان على مبدأ في الرأي . والعقيدة .

وقد يقول القارىء إن الحديث عن السياسة أو قراءة الجريدة ليس كل شيء في التكافؤ الثقافى الذى يؤدى الى الصداقة . ولكن هل هذا القول صحيح ؟

أليست السياسة كل شيء فى أيامنا هذه ؟ أليست هى التى تسيطر على حديثنا وتثير اهتمامنا ؟

والكلام فى السياسة هو فى عصرنا هذا حديث فى العلوم ، والاجتماع ، والاقتصاد معاً . فالقنبلة الذرية والغلاء والاستعمار والانقسام فى الهند واحراق المحاصيل فى أمريكا وأثمان البترول والطيران واضراب العمال ، كل هذا وغيره قد أصبح من صميم السياسة ومتى شرعت الزوجة التى لم تلق عناية كبيرة قبل الزواج بتعليمها ، فى قراءة الجريدة مع زوجها ، ووجدت منه المفسر والموضح الذى يستخلص لها المغزى ، فلن تمضى سنوات حتى حتى تكون على تكافؤ يكاد يكون تاماً مع زوجها ، نوراً وعرفاناً ورأياً وإطلاعا . وعندئذ تسعد هى بصداقته كما يسعد هو بصداقتها

أعرف رجلين يختلفان في المهنة وأسلوب العيش تزوجا أختين على قدر متساو من التعليم . وهو تعليم ابتدائي قليل النفع سريع الزوال . ولكن أحد الزوجين جعل زوجته شريكته في المجلة والجريدة . والآخر لم يبذل هذا الاشتراك . وقد مضت عليهما إلى الآن نحو ١٥ سنة ، فماذا كانت النتيجة ؟ الأولى تقرأ وتناقش وهي صديقة زوجها ، عندما يقعد إليها يجد أن الحديث يرتفع من القيل والقال إلى موقف ترومان ووالاس ، واتجاه الوفد في المعاهدة ، وموقف روسيا والقنبلة الذرية ، والفرق بين حزب العمال وحزب المحافظين الخ .

أما الأخرى فقد نسيت القراءة تماما ، ولذلك هجرها زوجها إلى القهوة ، وأخذ يعيب عليها جهلها !

ولا شك أن المدارس في المستقبل ، ستغنيانا عن هذا الجهد عندما تعنى برفع مستوى الزوجة إلى مستوى الزوج بمحو الفروق التعليمية بين الجنسين . ولكننا الآن في حاجة لأن يعنى كل زوج منا بزوجه حتى يعلمها ، ويثير اهتمامها ، ويوقظ ذهنها .. وخير الوسائل الموقته لذلك هي الجريدة والمجلة . . . والمجهود الذي يبذله الزوج في هذا السبيل ليس بمجهوداً ضائعاً ، وحسبه أنه بذلك يكسب صداقة زوجته ، تلك الصداقة التي تفسح له آفاق السعادة الزوجية والهناء العائلي .

مجتمعنا الانفصالي الحاضر

نحن أقل مسرات ومباهج من الأوربيين لأن هؤلاء يلقون الدنيا في صراحة أكثر منا . ونحن بالمقارنة إليهم نوارب وندارى كأننا ملوثون بتهمة نخشى أن تفتضح . يعيش رجالنا منفصلين من النساء لهم مجتمعهم الخاص ومسراتهم الخاصة فإذا كانت هناك علاقة بين الجنسين فهي ليست علاقة الأنسة والرفقة والزمانة الاجتماعية كما هي الحال في الأمم المتقدمة . وإنما هي العلاقة البيولوجية البدائية التي قد ترتقى أحياناً إلى أنسة اجتماعية محدودة بالبيت . ولكن ما أصغرها وأضيقتها . . .

كل هذا لأننا نعيش في مجتمع انفصالي الرجال ينفصلون من النساء .

والأثار التي يخلفها هذا الانفصال لا تقدر . فإن الزمانة الزوجية التي تعد شرطاً ضرورياً للحياة السعيدة بين الزوجين ليست من المعجزات التي تباغتهما منذ العرس . لأن هذه الزمانة تحتاج إلى مراة قد حرم منها شبابنا وفتياتنا لأننا حرمنا الاختلاط بينهما قبل الزواج . فأصبح كل منها منكفئاً على نفسه له عقليه خاصة وأحاساسات نفسية خاصة كانه مخلوق من كوكب آخر .

ولذلك يلتقيان بعد الزواج وهما غريبان يحتاج كل منهما إلى مجهود جديد للتوفيق في الحياة المشتركة الجديدة .

والأوربيون يختلطون . يتعلمون وهم صبيان في مدرسة واحدة . وأحياناً يتعلمون معاً أيضاً في المدارس الثانوية . أما الجامعات فالتعليم على الدوام مشترك لا ينفصل فيه جنس من آخر . وهذا إلى الاختلاط بالضيافة التي لا تنقطع . ولذلك ينشأ الشبان والفتيات على دراية ومعرفة فاذا دخلوا في بيت الزوجية كان دخولهم على نور وهدى وليس بمثابة الكشف عن أرض مجهولة كما هي الحالة الأسيفة عندنا .

ومنع الاختلاط بين الشبان والفتيات يعقب أثراً من الأمراض النفسية يعرفها الدارسون لهذا الموضوع . لأن هذا الفصل يمنح بالشباب أيام المراهقة إلى الاستسلام للخيال الذي لا ترده ولا تحده حقائق الاختلاط وليس الواقع . فهو يثقل من خيال إلى خيال ، ويشطح ويتطوح إلى أن يحد نفسه يوماً وقد بعد إلى منأى تخصب فيه الشذوذات الجنسية التي يشق عليه . وأحياناً يستحيل ، أن يتخلص منها حتى بعد الزواج .

ونحن الرجال نحتاج على الدوام إلى الاختلاط بالجلس الآخر منذ أن نولد إلى إن نموت . لأن أقل ما يقال في تبرير

هذا الاختلاط أنه هو الوضع الطبيعي الذي يجب الا يناقضه وضع اجتماعي . والشاب المختلط ، زيادة على أن غرائزه تبقى سليمة بعيدة عن الشذوذات ، يرقى شخصيته بالاختلاط بالجنس الآخر إذ هو يعنى بلباسه وانغته وصحته لأنه يحب أن يبدو بأحسن ما يستطيع حتى يجلب الإعجاب والرقه من الجنس الآخر . بل هو يرقى ذهنه ويربى حواسه لهذا الغرض أيضاً . ونحن نستطيع بالفراسه السيكلوجية أن نعرف الشاب المنفصل الذي لم ترق نفسه وحواسه وذهنه بالاختلاط الجلسى .

وأول ما نجد فيه اهمالا فى هندامه إذ هو لا ينتظر اعجاباً ولا يتكلف عناية لجلب هذا الاعجاب من الفتاة . وهو يؤمن بالشهوة لا الحب . لأنه لم يسامر قط فتاة ولم يعرف قط أن للفتيات ميزات روحية ونفسية وثقافية وذوقية وأهن يمتزج أيضاً بالشجاعة والتضحية والشرف .

ومثل هذه الحال التعسة تكون أيضاً عند الفتاة المنفصلة مع الاختلاف الذى تقتضيه ظروفها . بل هى أتعس من الشاب لأن حبسة البيت أسوأ أثراً هنا . والشاب مع انفصاله لا يحبس فى بيته . ولذلك تفقد الفتاة حيويتها ويستولى عليها جمود ينقص أن لم يبلغ جاذبيتها . مع أن مواهبها الطبيعية فى الجمال قد تكون

كبيره جداً . ثم تسودها عقلية المنع والانكفاف . لأن الأحجام
المادى يتشعع من بثرته فى البيت إلى الوان من الأحجام الذهبى
والنفسى ، فيجب ألا تنظرى ويجب ألا تقرئى ويجب ألا تعرفى ، الخ .
وقد أكون قد بالغت فى وصف المساوىء التى تعود من
الانفصال بين الجلسين لأن الحدود والسدود قد تحطمت إلى
حد ما . ولكن يجب أن نسلم أنها مع الأسف لاتزال قائمة فى
كثير من أوساطنا . وهى أحياناً ، مع تحطمتها فى الواقع المادى ،
لاتزال قائمة فى بعض الأذهان والنفوس .

يجب أن نعد الاختلاط جزءاً من تربيتنا العامة وأن ندعو
إلى التعليم المختلط فى المدارس الابتدائية وإلى تشجيع الضيافة
الراقية بل أيضاً إلى غشيان المطاعم والقهوات العامة مختلطتين .
وعندما يلتقى مجتمعنا من حال الانفصال إلى حال الاختلاط
سوف نحس أننا أمة متمدنة . وسوف يربينا الاختلاط ويحدث
بيننا زمالة واحتراماً ، ثم يؤدى إلى الحب . أجل هذا الحب
المكشوف الصريح الشريف الذى لا يحتاج إلى اختلاس النظر
من خلف الأبواب والامستار .

الحياة الفنية للمرأة

كل ما قلناه عن الرجل في الفصول السابقة ينطبق أيضا على المرأة وقد نهينا عن ذلك في كلامنا عن العائلة والمجتمع . ولكننا نحتاج مع ذلك أن نعالج الحياة الفنية للزوجة لأننا في مصر قد ورثنا من التقاليد أخطاء كثيرة ألغت المرأة من مجتمعنا وغيبتها عن وجداننا . وقد كوفت هذه التقاليد بتعميم حرية المرأة ، وانتشار المدارس إلى حد بعيد . ولكن لا يزال لهذه التقاليد رواسب إذا لم ترتفع إلى وجداننا الذهني فانها لا تزال تصنع عواطفنا وتؤثر في حياة المرأة

والحياة الفنية للمرأة تقتضي أن تعمل كالرجل . فنحترف حرقة ما ترفعها من الأشياء إلى الإنسانية وتربها طوال العمر وتحملها على النمو والابتاع النفسى ، كما تقتضيها الاتصال بالرجال . ونحن الرجال لا نستطيع أن نتخيل أنفسنا منفصلين عن المجتمع ومحرومين من الحرقة لأننا نعرف أننا في هذه الحال نسقط سقوط اليأس الذى لا نهض منه . ذلك لأن الحرقة والمجتمع يرياننا وهما من أكبر الدوافع لارتقائنا الذهني والنفسى بل والجسمى .

وقليل من المقارنة بين امرأة لزمت البيت وحرمت من المجتمع ، وأخرى عملت في حرفة واختلطت بالمجتمع ، مدة عشر سنوات مثلاً ، يوضح لنا مقدار الفرق العظيم بينهما . فإن قيم الحياة الى حد عظيم قد ألغيت عند الأولى بينما هي قد روعيت عند الثانية . ولذلك بينما تركد الأولى وتضمن وترهل لقلة حركتها ، وتضيّق آفاقها الذهنية والنفسية ، تلشط الثانية في عملها وتستبقى نحاقتها وعضليتها وتتسع آفاقها الذهنية والنفسية

وليس لأحد منا أن يؤمل في القريب أن تستوى المرأة بالرجل فانها لم تصل الى هذه الحال في أوروبا وأمريكا الى الآن . ومع أن قوانين الدول هناك تنص على المساواة فإن قواعد المجتمع تأبى هذه المساواة . وفي مصر لانزال الحرفة مكروهة عند المرأة وكثيراً ما تخرج منها عندما تلوح لها الفرصة كما نرى في بعض المعلومات مثلاً . ولذلك فأننا عندما نعالج مركز المرأة في مصر نتجه الى البيت كأنه كل شيء . وهو ، في وضعها الاجتماعي القائم عندنا ، يكاد يكون كذلك . وإنما الذي ننساه هو أن البيت للمرأة وليست المرأة للبيت ، أى يجب أن يعد البيت لراحتها ورفقها وسلامتها ولا يضحي بها من أجل الطبخ والكنس والغسل .

والبيت في مصر كثير الأعباء مرهق التكليف كثيرا ما يشبه
الورشة في إرهاقه وتعدد واجباته الصغيرة . كما لا يزال المطبخ
والمغسل ورشتين صغيرتين لا ينقطع العمل منهما طوال النهار
وبعضا من الليل . ورثة البيت مضطرة إلى الإشراف عليهما
إذا لم تبشر بنفسها العمل فيهما . وهي في كلتا الحالتين تقتطع
من وقتها وفراغها ما كان أخرى أن تنفقه في ترقية شخصيتها
بالدراسة والاختلاط والالتفاف المثمر بالفراغ

وتستطيع المرأة المصرية أن تمتنع باختبارات المرأة
الأوروبية هنا فان هذه تخص يوما أو يومين للخروج مع زوجها
وأولادها والغداء أو العشاء في المطاعم . كما أنها تخص يوما أو
يومين في الأسبوع لتناول الأطعمة المعلبة التي تستغنى بها عن
الطبخ والخروج الى المطاعم يتيح الاختلاط كما أن اقتناء
العلب العديدة الوفيرة للأطعمة يتيح الفراغ الذي تستخدمه
رثة البيت في تثقيف ذهنها أو في أى استمتاع آخر

ولذلك ارتقت بعض المطاعم في أوروبا حتى ليصح أن يقال
أنها ليست لتزويد زائريها بالطعام فقط . اذ لا يخلو مطعم منها
من جوقة موسيقية كما أنها في ترتيب موائدها واختيار آتياتها
وتزيين جدرانها والتألق في الطبخ تبلغ القمة . وتناول الطعام

فيها ليس لتوخى الشبع المعدى ولكنه قبل ذلك متعة فنية أنيقة .
وكثيراً ما تعود الزوجة من المطعم وقد درست درسا نافعا في
طبخ أحد الألوان أو ترتيب المائدة ، وهذا الى فوائد أخرى في
الاختلاط بالاصدقاء أو الاستماع للموسيقى

كما أن الاطعمة المعلبة تنوع وتعدد إلى حد لا تتخيله في
مصر حيث نكاد نقتصر من هذه الاطعمة على السردين . فانهم
في أوروبا وأمريكا يعلبون جميع اللحوم والخضراوات والأسماك
فتستطيع ربة البيت أن تحضر طعام اليوم كله دون أن تحتاج
إلى طبخ . بل أن كيزان الذرة نفسها توضع في علب . وزيادة
على هذا تباع الفراخ منظفة فلا تحتاج الى عناء الذبح والتنظيف
في البيوت كما هي الحال عندنا حيث نشترى الفراخ حية ونذبجها
ونحيل المطبخ بريشها وأحشائها إلى مزبلة

وإذا شئنا الترفيه عن المرأة المصرية في البيت حتى تجدد
الفراغ الذي تحتاج اليه كي ترقى شخصيتها وتثير ذهنها وتوسع
آفاقها ، فاننا يجب أن نعاونها على ذلك بنشيان المطاعم والاعتماد
على الاطعمة المعلبة واحالة النسل إلى المغاسل كما نحيل السكى الى
المكادى . وبهذا تخف أعباء البيت التى ترهق في الوقت الحاضر
آلافا من نساء الطبقة المتوسطة

وبالطبع لا ننسى هنا كثرة الأولاد أى الإسراف فى التناسل الذى يرهق الأمهات ويستنفد كل مجهودهن بحيث لا يبقى لهن من القوة ما يتوفرن به على عمل آخر . وقد توافرت وسائل الضبط للتناسل كما أصبحت مأمونة . ولا عذر للزوجين فى إهمالها لأن هذا الإهمال سينعكس أثره فى الزوجين اللذين سوف تصدمهما حقائق الحاجات الاقتصادية فيعجزان عن توفير الصحة والنزوية للأولاد بل أيضا لهما . لأنهما هما أيضا فى حاجة الى صحة وتربية وعلى ذلك نقول أن الحياة الفنية للمرأة ، اذا لم تكن تعمل مستقلة، أى طيبة أو معلقة أو ممرضة أو تاجرة، تحتاج الى الاقتصاد فى عمل البيت من ناحية ، وفى عدد الأولاد، من ناحية أخرى

العادات

نحن نعيش بالعادات . عادات العمل وعادات الفكر . ولكل منا عاداته الخاصة ، الحسنة أم السيئة ، في المشي والحديث والأكل والتفكير أى أنه يتخذ أسلوباً أو أساليب في كل ما يعمل . وهذه الأساليب تلصق به طوال عمره .

وقد كان ولنجتون يقول عن العادة أنها ليست طبيعة ثانية كما هو المثل الجارى إذ هي تزيد على الطبيعة عشر مرات . وعادات التفكير لا تقل خطورة عن عادات العمل . فان الناس يختلفون تفاؤلاً أو تشاؤماً بالدنيا وصرورها لعادات فكرية تعودوها ولا يطبقون التخاص منها . وكلنا يعرف ذلك الشاب الذى يتسم بالتمك أو المزاح فيثقل علينا باستصغاره لكل ما نفعل أو يملأنا طرباً بئكانه ونوادره . وهناك بالطبع ذلك الآخر الذى تعود الوقار فيكاد يجهل الضحك . ثم هناك آخرون قد تعودوا الانتقاد أو حتى المنافرة فهم على الدوام في موقف المعارضة والمناقضة . ثم هناك ذلك الذى تعود المحاصمة فلا نعرف كيف نحادثه لأننا نتوقع منه كل وقت لوما لنا في غير ما نستحق أن نلام عليه .

وجميع هذه الأخلاق عادات ذهنية يتعودها أحدنا ، في الغالب ، أيام طفولته فتثبت ولا تتركه طوال حياته .

ولكن كما تثبت العادة السيئة كذلك تثبت العادة الحسنة . ولذلك يحتاج كل منا كي يعيش في اقتصاد ذهني وجسمي ، وفي ملاءمة بينه وبين الوسط الاجتماعي أو المادي ، أن يتعود العادات الحسنة أي عادات الأكل الصحي والدراسة الدائمة والعمل المجدى والتسليمية المرقية والمعاملة او المعاشرة الاجتماعية إلى تنأى عن الشر .

وميزة العادات ، زيادة على انها تثبت وتلتصق بنا، انها تجعل العسير من الأعمال سهلاً محبباً إلى النفس . وصحيح ان عاداتنا العامة التي تحرك غرائزنا وتذشط عقولنا تأتينا عفواً بعضها أيام الطفولة وبعضها بعد ذلك . ولكن ليس معنى هذا اننا نعيجز عن تكوين العادات الحسنة اى نكونها بإرادتنا وعلى وجدان تام بمنفعتها وضرورتها لنا .

والهدف الذى نقصد اليه من تكوين عادة ، ان نقصد فى مجهودنا حتى نستطيع ان نؤدى مقداراً من العمل أكبر مما كنا نؤديه قبل تكون العادة ونستهلك من وقتنا أقل مما كنا نستهلك .

والرجل الحكيم لا يترك نفسه يعيش عفواً كأنه مسوق

بالظروف والصروف . إذ يجب ان يعيش قصداً باهدافه
وعلى تقدير لمواهبه وكفاءته واستغلال لها بما يجعل حياته
مجدية ان لم تكن سعيدة . وهو محتاج ، لهذا السبب ، إلى ان
يتعود العادات الحسنة التى تعاون على رقيه وتطوره .

واول ما محتاج إليه فى تكوين عادة ما ان تقتنع بفائدتها
وضرورتها لنا . وهذا الاقتناع ليس محض الميل والاتجاه . إذ
يجب ان نعين الفوائد التى تعود علينا كتابة مع التفصيل الذى
ربما محتاج إلى مراجعة وتفكير وتنقيح . اى اننا يجب ان نحس
اننا لم تأخذ بهذه العادة إلا بعد حكم قد وصلنا اليه عن وجدان
ويقظة . واننا بنينا هذا الحكم على اسباب قوية قد اقتضاها
« تصميم » حياتنا .

فاذا اقتنعنا بفائدة العادة شرعنا فيها . وحسبنا من هذا
الشروع ان نعمد الى يومنا ، اى هذا اليوم ، الى ممارسة العادة .
ثم نجدد العزم كل يوم على هذه الممارسة الى ان يؤدى التكرار
الى ثباتها . ولا بد من المثابرة بحيث لا يفوتنا يوم إلا ونحن فى
ممارسة لها .

وواضح اننا عند ما نختار عادة يجب ان تكون فى مستطاعتنا
حتى لا تتجاوز طاقتنا . ثم يؤدى عجزنا الى تركها .

مثال ذلك : نفرض ان احدا قد بلغ الثلاثين وهو يجد انه مقصر في الدراسة وان زملاءه قد سبقوه فصار لهم مقام وحققوا كسباً ونالوا امانى لم يحصل هو عاينها لتقصيره في الدراسة . وأنه ينوى ان يتعود عادة الدراسة .

فأول ما يعتمد اليه ان يعين هذه الدراسة ويوضح الاسباب التي تدعوه اليها . ويوضحها كتابة مع التفصيل والمراجعة حتى يقتنع بضرورتها .

ثم يبدأ اليوم ، هذا اليوم ، في هذه الدراسة .

ثم يثابر . والمثابرة هنا تعنى انه لا ينقطع .

وهو محتاج الى تشجيع . وقد لا يجد هذا التشجيع من اخوانه . وعليه عندئذ ان يسجل نجاحه يوماً بعد يوم لأن هذا التسجيل يوضح له الخطوات التي خطاها نحو تحقيق اهدافه . فهو يزيده حماسة ونشاطاً واقبالاً .

وقد ذكرنا الدراسة باعتبارها إحدى العادات التي يجب على الشاب ان يتعودها . ولكن العادات الحسنة كثيرة . لأننا محتاجون الى عادات الرياضة البدنية ، والمحاذنة بكلمات كريمة ، والاعتدال في الطعام مع التأني الذي يقتضيه التمدن ، وامثال ذلك مما قد تصغر قيمته عندما نتأمله عملاً منفرداً ولكن

—٧٧—

تكبر قيمته عند ما نتأمله عادة متكررة ، إذ قد يسهل علينا ان
تحدث إلى احد الناس في لغة كريمة وكلمات انيقة إذا قصدنا
إلى ذلك وتكلفنا . ولكن لا يسهل ان نفعل ذلك مع جميع
الناس على سبيل العادة عفواً وسماحة . وكثير من النجاح يعزى
أحياناً إلى مثل هذه العادات .

التخلص من العادة السيئة

العادة كالنار إما خادمة حسنة وإما سيّدة مؤذية ، وكثيراً ما تنسلط علينا عادات تملكنا وتستبد بنا فتؤذيها خاضعين ونحن على مضض من إلحاحها وعلى وجدان بما تبده من قوانا وحيويتنا .

وكثير من عاداتنا السيئة يعود إلى إهمال أبونا في تربيته حين عودونا التدلل وكراهة الاستقلال أو الخوف والاحجام أو حتى كراهة بعض الأظعمة . فاني أعرف رجلاً بلغ الستين ولم يذق الجبن في حياته . وكراهته لهذا البروتين الثمين ترجع الى أيام طفولته حين أهمل أبواه تعويده تناول هذا الغذاء . وقد خسر كثيراً في صحته وماله بهذا الحرمان . كما ان هناك ناساً قد بلغوا الأربعين او الخمسين إذا رأينا هم يأكلون اشمازنا من الأسلوب الذي يتبعونه في تناول الطعام ومضغه .

واتجاهاتنا وميولنا هي عادات كامنة توجهنا نحو الجد أو المزاح . ونحو التشاؤم أو التفاؤل . ونحو الأقدام أو الاحجام وهي عادات نفسية لا تختلف من عاداتنا الجسمية في غسل الوجه أو السير في الشارع أو التحية لصديق . وهي ، أي هذه العادات

النفسية ، تعين سلوكنا وتصرفنا .

وبالطبع هناك عادات خطيرة كالتدخين أو الشراب أو حتى المخدرات والشهوات الشاذة . ونحن لانعالج هنا هذه العادات إذ هي تحتاج الى تحليل نفسى كى نصل الى الازمات والتوترات التى أحدثت الالتجاء الى هذه العادات فرارا من الواقع المؤلم . وقد يكون التدخين أخفها فلا يحتاج الى تحليل . لأن الأغلب أن الشاب يقع فى هذه العادة لرغبة ساذجة فى تأكيد رجولته . ولكن ادمان التدخين يدل على توتر نفسى يحتاج الى التحليل .

وفى ابطال العادة ، كما فى تكوينها ، نحتاج قبل كل شىء الى الاقتناع . وهذا الاقتناع يحتاج الى توضيح العناصر كما لو كنا ندافع عن متهم ونوضح عناصر البراءة . وذلك كى ينبنى الاقتناع على أسباب وجيهة . فاذا تم لنا ذلك فللشرع فى التنفيذ ونفنع منه بيوم واحد .

فالمدخن الذى ينوى ابطال التدخين يحتاج الى ايضاح الأسباب ، كتابة ، لهذا الابطال . ثم عليه ان يقرر العزم على الامتناع يوما واحدا لا اكثر . فاذا تم له هذا اليوم فعليه أن يقرر هذا اليوم وعليه ان يسجل هذا الانتصار ، كتابة ايضاً .

ثم يحدد العزم على يوم آخر . وكلما مضى يوم ضعفت العادة وتراخت قبضتها على خناقنا .

ويجب على المدخن ايضاً ان يستعين بالوسط . اى يغير الشارع الذى تعود أن يشترى منه . او لا يأخذ مؤونته اذا كان على قصد الابتعاد عنه أو نحو ذلك . ثم يجب المثابرة فلا يجرم يوماً يعود فيه الى عادته لأن هذا اليوم وحده يفسد جميع ايام الحرمان السابقة او يلغيها .

واذا وجد الشاب انه مع ذلك عاجز عن ابطال العادة السيئة فعليه بالتحليل النفسى حتى يصل الى الاصول الثابتة فى كামته . وعقله السكامن ، فيكشفها وينفضها فى الهواء . وعندئذ يسهل الابطال .

ولكن العادة تحدث فى النفس شهوة . وابطالها كظم قد لا يطاق . وكثيراً ما رأينا آثار هذا الكظم فى مدمن الخمر حين يتأخر عن ميعاد شرابه . فانه يقلق فى مكانه . وقد يرتعش أو يعرق أو يغضب وهذا لأنه كظم الشهوة للشراب ساعة أو أقل أو أكثر فقط . فكيف بالابطال التام ؟

يجب على المدمن أن يأخذ بعادة أخرى قريبة او مناسبة . للعادة السابقة التى أبطلمها حتى تجد شهوته المكظومة المنفس

والمخرج . كالقهوة بدل التدخين أو الألعاب الرياضية بدلا من القمار أو الطعام قبل ميعاد الشراب حتى تمتلئ المعدة فلا يساغ الشراب . وإذا لم تنجح هذه الوسائل للاقلاع عن عادة سيئة فيجب ، كما قلنا ، الالتجاء إلى التحليل النفسى . وإذا لم يكن هذا متيسرا فلا بأس من الاعتماد على ما يسمى : « الانعكاس المعدول » أى إيجاد مركب نفسى سىء كأن نحقق شريب الخمر بحقنة مقيته قبل الشراب ثم نأذن له بكل ما يهوى من شراب كما وكيفا حتى إذا جرع كاسين أو ثلاثة التى نفسة فى غثيان وقء . فاذا صحا صار لا يشتهى الخمر إلا وفى نفسة هذا الجزع من الغثيان فيكره الخمر . وهذا هو ما تفعله الام مع طفلها الرضيع حين تحتاج إلى فطامه فامها تطلى الحلبة بسائل مر فيكرهه الطفل الرضاع لأنه يقرن المرارة إلى الحلبة .

ولكن المرارة للحلبة ، والغثيان وقت الشراب ، كلاهما عمل سلبى أى أنه يكف ويزجر . والحاجة تدعو هنا إلى عمل إيجابى يغرى ويجذب . وهو عند الأم تقديم طعام سائغ للطفل . وكذلك يجب أن تقدم شيئا للسكير له قيمة نفسية ترفيهية تقوم مقام الخمر . ولكل إنسان ظروفه التى تعين العلاج . فقد يعالج أحدهم بالرفقة المنعشة مع أحد الأصدقاء . وقد يعالج آخر باهتمامات لذيدة تملك نشاطه وتوجهه .

وحياتنا كلها سلسلة من العادات الجسمية والذهنية والنفسية
 فاذا قصدنا إلى أن نجعل حياتنا فنا جميلا فالتنا نحتاج إلى
 تعود العادات التي تؤدي إلى الاقتصاد في مجهوداتنا كما نحتاج
 إلى عادات التأنيق ، تتأنيق في لباسنا وطعامنا وتصرفنا ، حتى نجعل
 الكيف يأخذ مكان الكم ، فنطلب الجمال فوق الضرورة ونقصد
 إلى الجمال في كل ما تتوخى من وسائل أوغايا .

عادة القراءة

تحدثنا في بعض الفصول السابقة عن القيمة العظمى لعادة القراءة . ولكننا مع ذلك نحتاج إلى التوسع في إيضاح هذه القيمة . وهذا الكتاب الذى نتوخى فيه جعل الحياة فنية يجب أن يحوى فصلا عن القراءة . لأن القراءة وحدها تجعل الحياة فنية فى الكثير من معانيها إذ هى ترفع القارئ من الاعتبار المحلية ومن الضروريات المعيشية إلى قيم بشرية سامية وإلى كاليات وتأنقات ذهنية لا يحصل عليها إلا من ذلك القارئ الذى يحيل نفسه إلى أمى لأنه يكره القراءة .

وفى أيامنا يعد توافر الكتب والمجلات والجرائد من أعظم انتصارات الحضارة العصرية . لأنه قد جعلنا ، بالقراءة المتابعة ، على وجدان دائم بعصرنا ودنيا فأتسعت آفاقنا الفكرية والعاطفية وحفلت حياة القارئ باهتمامات جديدة ومتجددة لم يكن آباؤنا يعرفون شيئا منها . فإذا لم تكن حياتنا أطول من حياتهم فإنها على الأقل بالقراءة ، أعرض وأعمق منها .

وواضح أننا نقصد هنا القراءة المنيرة المنبهة لا القراءة المظلمة المخدرة . فان هناك قراء وقارئات يشترون المجلة كما يشترى اللبن أو اللبان للنسلية وقتل الوقت كما أن هناك مؤلفين قد

زودوا السوق الأدبية، بهذه المخدرات التي تبذع العقل وتلغى الوجدان .

ولكن القارئ الذى يعنى بحياته بأبى التخدير لأنه لا يجب أن ينسى أنه حى . وهو يقرأ كي يزيد حياته حيوية وليس كي ينام ويتخدر . وهو يزداد بالقراءة سرورا واحساساً بالنمو . وقراءته دراسة مقصودة مرتبة على مراحل حياته كأنها البرنامج للنمو والتطور . والقارئ الذى يحس بعد سنوات من دراسته أنه لم يتطور يحتاج إلى المراجعة والتساؤل . لأن أغلب الظن أنه أساء فى اختيار الكتب وانغمس فى دراسات جامدة لا تبعثه على الرقى أو النمو أو التطور .

والقراءة الجزافية سيئة وهى كالأكل الجزافى . لأننا نحتاج فى الحياة الفنية إلى التنظيم والترتيب ووضع البرامج كي تفتح الميادين الجديدة . فالرجل المستنير لا يرضى لنفسه هذه الأيام أن يعيش على هذا الكوكب دون أن يحاول الوقوف على الطاقة الذرية، كما لا يرضى لنفسه أن يحمل نظرية التطور، التطور البيولوجى والتطور الاجتماعى .

وهناك عشرات من الموضوعات الحيوية التي لا يجوز لمستنير أن يهملها . وهى تستغرق الحياة كلها . بل أن المتعودين للدراسة

يجدون أنهم فى شكوى دائمة من قلة الوقت . ولذلك لا يعرفون السأم وأهتاماتهم متعددة متجددة .

والحياة الفنية تتجه نحو العناية بالفنون الجميلة قبل كل شىء . أى بالأدب والشعر والموسيقا والرسم وما إلى ذلك . لأن هذه الفنون تزيدنا تألقاً فتتوخى الجمال فى تصرفنا كما نتوخاه فى بيتنا ، ولكن التعمق يقتضى ألا يقف أحدنا من الدراسة موقف القارئ المطالع القانع بزيادة معارفه . إذ يجب أيضاً أن يشترك إيجابياً فى ثقافة معينة تكون عنده كالبؤرة الأصلية التى تتشعب إلى ثقافات فرعية عديدة . وهو يحسن إذا مارس الكتابة عما يقرأ . يشرع أولاً بمراسلة بعض المجلات ثم يرتقى إلى كتابة المقالات ثم إلى التأليف إذا استطاع ذلك . ولكن يجب على كل حال أن يحاول الكتابة التى تزيده ارتباطاً بالثقافة وتحمله على زيادة البحث والاستقصاء لما يدرس .

وتم اعتبار آخر فى قيمة القراءة أو الدراسة للحياة الفنية هى أنها أعظم الوسائل للاحتفاظ بشباب الذهن فى الشيخوخة . فالشباب الذى تعود قراءة الجريدة والكتاب أيام شبابه ثم واصل هذه العادة فى كهولته وشيخوخته يحتفظ بالكلمات ماثلة حية فى ذهنه حين تتبدل العواطف فلا تحرك الذهن إلى التفكير

والاهتمام بل حين تأخذ خلايا المخ في التدهور وتعجز الشرايين الدقيقة المتصلة عن تغذيتها وتنظيفها . ففي هذه الحال يرافق الشيخوخة نسيان للكلمات يؤدي إلى تعطيل للتفكير . ولاكن عادة القراءة كل يوم تجعل الكلمات ، كما قلنا ، ماثلة . ومتى مثلت الكلمات مثلت الأفكار . فيبقى الذهن شابا حيا وتعود الشيخوخة حافلة بالاهتمامات حتى ولو بلغنا التسعين أو المائة . ونرى هذا واضحا في جميع الأدباء أو العلماء الذين لم ينقطعوا عن الدراسة في شيخوختهم . إذ في الوقت الذي يجد فيه غيرهم قد تبدل ذهنه وجمد ، أو حتى خرف ، نجد أنهم لا يزالون يقرأون ويكتبون كما لو كانوا في الشباب . وقليل منهم من يمتاز بشرايين طرية أو صحة عامة تختلف من سائر الناس . ولكن ميزتهم الوحيدة هي الميزة اللغوية إذ قد احتفظوا بالكلمات فاحتفظوا بالمعاني أيضا وبقيت الأفكار حية عندهم تحركهم الى النشاط والاهتمام

ولذلك تعد القراءة خير ما نهى للشيخوخة . ويجب ألا يقل الاهتمام بها عن الاهتمام بالصحة الجسمية . بل ربما كانت هي أهم وأنجع لاستبقاء الحيوية عند المسنين . وعندنا من الأمثلة في مصر ما يبرهن على صحة قولنا . ففي هذا الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات (١٩٤٦) يعيش عبد العزيز فهمي باشا في

السادسة والسبعين وهو محطم الصحة الحسنية . ولكن ذهنه في شباب عجيب لأنه لم ينقطع يوما عن القراءة الجدية . فالكلمات (أى الأفكار) ماثلة في ذهنه تبعثه على اهتمامات ثقافية مختلفة . وقد زرتة قبل شهرين فوجدته ينقل كتابا عن القانون الرومانى إلى اللغة العربية . وهو يقرأه فى حماسة ويراجعه فى نقد وتغيير . ولذلك نحن على حق حين نقول أن صحة الذهن للمسنين أهم من صحة الجسم . ومداومة القراءة اليومية هى خير ما يؤدى إلى صحة الذهن . ونستطيع أن نذكر عشرات من المسنين استبقوا بالقراءة شباب أذهانهم . ولكننا نحب أن نغير كلمة القراءة ، فنقول الدراسة . لأننا نقصد إلى الجد والترتيب ووضع البراج للتوسع ذهنى . ولا نقصد إلى القراءة التى تقوم مقام أكل اللب أو مضغ اللبان .

والبيت المتمدن فى عصرنا هو البيت الذى يعرف أن أنخر ما فيه من أثاث إنما هو الكتب . لأنها غذاء نفوسنا وعقولنا التى هى أحق بالعناية من بطوننا . ومن عجب أن هناك من يعد نفسه متمتعاً بحياته لأنه يأكل أنخر الاطعمة ويلبس أجود الملابس ولا يدرى أن المتع البشرية السامية تتجاوز هذه الحاجات البيولوجية إلى الوقوف على ذلك التراث البشرى

العظيم من مؤلفات افلاطون إلى صلوات اخناتون إلى فلسفة
يوذا إلى دراسة الكتب المقدسة إلى تواريخ الأديان وحياة
القديسين إلى حقائق العلوم وتطورات الأمم وغير ذلك . وأى
شئ من أثاث المنازل عند المليونيين يعادل الذهب المؤث
بالاختبارات والنظريات والأفكار التى تبسط تاريخ المستقبل
فضلا عن تاريخ الماضى ؟ .

والقيم البشرية تعد على الدوام فى المرتبة العليا بالمقارنة
إلى القيم الاجتماعية . ولذلك لا يمكن أن يقارن الثراء والوجاهة
والمال وترف المنزل والمعيشة بالذهن الثرى بالثقافة المتمرن
على التفكير اليعظ بالوجدان العالمى . وذلك الشاب الذى يهمل
تعود الدراسة ويهمل فى شراء الكتب والمجلات يؤثر عليه
الرياش النفيسة أو اكتناز المال انما يبخس نفسه التى هى أولى
من أى شئ آخر بالانفاق بل بالإسراف فى الانفاق .

البيت متحف

البيت من أخص الأشياء التي نملكها . فقد نفتنى أسهم الشركات أو مئات أو آلاف الجنيهات أو قد نشترى عزبة نستغلها ونعيش في إحدى المدن من غلتها ولكن ليس لواحد من هذه المقتنيات تلك العلاقة الحميمة التي تربطنا بالبيت . لأن له خصوصية بنا ليست لغيره . ونحن نقضى فيه معظم نهارنا وجميع ليلنا ونعاشر فيه أولادنا وزوجتنا ويجد فيه الراحة بعد كدّ النهار . كما أننا نطبع عليه شخصيتنا لأننا نتخير له الأثاث وتأنق في ترتيبه . ومن هنا هذا الحنين الذي نحس به عقب اغتراب عنه بضعة أسابيع أو أشهر ولو كان هذا الاغتراب في مصيف أو مشى للراحة والاستجمام .

وعند بعض الناس يعد البيت مأوى أو مطعماً . ولذلك سرعان ما يتركونه إلى القهوة أو النادي أو الحانة حيث يجدون رفايتهم مع الاصدقاء أو في لذة الشراب . ولكن هؤلاء البعض ليسوا في الغالب على حال سوية نفسية إذ هم يكظمون أشياء من علاقة زوجية سيئة الى قلق اقتصادي أو حرفي أو نحو ذلك . ولقرارهم من البيت معنى رمزي يسهل تفسيره بالتحليل النفسي .

والبيت مشتق لغة من فعل « بات » أى أمضى الليل . وهو بهذا الاشتقاق يدلنا على الضرورة الأولى التى اقتضته . ولكن الإنسان فى طورنا الحضارى لا يقنع بالضرورات إذ هو قد سما إلى كثير من الكماليات . وهو يطلب من البيت أكثر من المأوى والمطعم . وقد نصحتنا فى فصل سابق بأن ينجح الزوجان من وقت لآخر إلى المطاعم العامة وبأن يحال غسل الملابس إلى حيث تغسل بالآجر بدلا من إحالة البيت إلى ورشة للغسل والبطخ طوال اليوم .

والوضع الاجتماعى القائم يجعل البيت المكان الطبيعى للمرأة . وليست الحال كذلك للرجل . ولكننا نبالغ فى تأكيد هذا الوضع حتى لكأن المرأة قد خلقت للبيت . وليس العكس . وهذه المبالغة تنتهى بأن تجعل من البيت محبسا لها يفصل بينها وبين النشاط الاجتماعى الذى يجب أن تدخل فى غماره وتتأثر به وتؤثر فيه . إذ هى قبل أن تكون « ربة بيت » ، إنسان ، له مركزه الأكبر فى هذا الكون قبل مركزه الأصغر فى البيت . وهناك فرق بين السرور والسعادة . الأول مادى بشأن المواد التى نقطنها ونستمتع بها . والثانية فكرية بشأن الغايات والمثلثات . ولكن ليس شك فى أن أقرب المسرات إلى السعادة هو الحياة

العائلية السامية . لأن البيت مادة وفكرة أى أنه مأوى ومطمح ومتحف كما هو عائلة تقوم على علاقات روحية وتهدف إلى مثليات وتحقق أمانى كثيرآ ما تحملنا على أسنى المجهودات .

والبيت السامى العصرى هو معهد حر يحدد فيه أعضاؤه حرية الفكر تسود جميع المناقشات النيرة فى ديمقراطية اجتماعية وتربية ذهنية واخلاقية . وهو وحدة المجتمع الذى تتألف منه الامة . وكل عناية بالبيت اما هى فى النهاية عناية بالأخلاق الحسنة والسلوك البار . لأن الأطفال عندما يشبون يعاملون أفراد المجتمع بالقيم والأوزان التى تلقوها فى البيت أيام طفولتهم .

ثم نحن نعيش فى البيت نحو سبعين سنة أى نعيش هذا القدر باجسامنا ولكننا نعيش بنفوسنا أكثر من هذه السنين لأننا نحس نفسيا أن عائلتنا منا وان حياتنا مندغمة فى حياة افرادها ولذلك يمتد احساسنا للبيت إلى مقدار من السنين يتجاوز حياتنا وهذا الاحساس يجعلنا نستعين بأى مجهود لرقية البيت .

ثم للبيت خصوصية بنا كأنه البذلة التى نلبسها على قد قامتنا فنعتنى بتفصيلها حتى نتخذ قسيمات أعضائنا مع ما قد يكون بها من نقص . ولذلك نحن نؤثر البذلة التى فصلها الخياط على بذلة

جاهزة قد أخذ القياس فيها بالتعميم وطراز السن وليس بالتخصيص والعناية الخاصة بكل فرد .

ويعد البيت لهذا السبب « مركب » نفسى والحين اليه أحد مظاهره . وقد وجد البيت لذلك حرمة في كثير من الأمم المتقدمة . فلا يجوز للدائن بيعه أو بيع أثاثه مهما بلغ الدين الذى يحمله صاحبه . كما قد أجازت الأمم امتلاك المسكن الخاص فى المبنى العظيم الذى قد يحوى عشرين أو ثلاثين شقة . وذلك تشجيعاً لهذه الخصوصية التى تحمل صاحب البيت على الارتباط والعناية به . لأنها لحظت أن البيت أثراً تقويمياً للأخلاق . فكما أن المتزوج أقل جرائم واستهتاراً من الأعزب لارتباط الأول بزوجته ، كذلك صاحب البيت أقوم أخلاقاً من لا يملك بيتاً لمثل هذا الارتباط .

وفى الحياة يقتضي أن ننظر إلى الحياة نظرة فنية فنختار الأثاث فى دراية وعناية مع الاستقلال حتى ولو خالفنا العرف فى هذا الاختيار . لأن العرف بطبيعته طراز تعميمى . ولكن الشخصية المستقلة تطلب التخصيص والافراد . والبيت يتسع للاتجاه الفنى حتى يعود بالتأنيق متحفاً . وكثير من البيوت التى امتاز أصحابها بالثراء قد صارت متاحف . ولعلها مع الأسف

متاحف قد أسيء فيها الاختيار . حيث أخذت الآبهة المطهمة
مكان الفن الأنيق .

ولكن مع ذلك يجب أن نعترف أن الثراء في أيامنا يستطيع
أن يجذب إلى البيت أنفجر الاثاث الذي يضع تصميمه ويرسم
مواصفاته فنانون فقراء . ولذلك يشق على غير المتيسرين أن
يجعلوا الفن سائداً في بيوتهم فضلاً عن إحالتها إلى متاحف .

فهناك آنية فنية معجبة تزدان بها الموائد عند الأغنياء ولا
يستطيع غيرهم شراءها . وقل مثل هذا في سائر الاثاث أو
بالأحرى معظمه . ونقول في « معظمه » لأن كثيراً من الاثاث
الغالي في الثمن لا نجد فيه غير الآبهة السخيفة مع القبح العظيم
لأن الذين صنعوه قصدوا إلى كثرة التكاليف التي تبرز وفرة
المال عند المقتنين لهذا الاثاث دون الالتفات إلى التأنيق الفني
نذكر من هذا سريرا رأيناه من النيكل له قبة كأنه أريكة
جنكيزخان أو عرش تيمورلنك . وكل ما فيه من ميزة أنه يباع
ببضع مئات من الجنيهات .

وكم قد رأينا من مقاعد مذهبة وكنبها منجدة وهناضد
ومرايا متعددة حتى أيدخل أحدا مناظرة الضيوف فيحس كأنه
في قاعة أثاث قد عرضت أشياءها للبراد .

والفن أيسر من هذا . ولكنه مع ذلك لا يتوافر لغير المتوسطين المديرين الذين يختارون عن دراية وفهم . وليس هذا شاقاً إذا جعلنا همنا في جمع الأثاث تمتداً على سى العمر أى لا نشترى أثاث البيت دفعة واحدة كما هو المألوف في بلادنا بتجهيز العروس بأثاث بيتها . لأننا حين نفعل هذا نجمع الأثاث في عجلة وفقاً لطراز العصر أو السنة . وقد يكون طرازاً سيئاً أملتة نزوة وقتية زائلة . وإنما يحسن أن نختار الأثاث قطعة بعد أخرى مع التخيير الذى يقتضيه ارتقاءنا الفنى على مدى السنين .

ويجب أن نقضى أجود الأثاث فلا نتساح في الجودة والقيمة الفنية . وهذا ميسور ما دمنا لا نزحم أنفسنا ونرهق جيبنا في شراء مجموعة كبيرة دفعة واحدة . وبذلك تجمع تحف الآنية والرسوم والكتب وسائر الأثاث . ويعود البيت متحفاً جميلاً يحوى أنفراً ما أخرجته حضارة فرنسا والصين وألمانيا ومصر وغيرهن .

وإذا كان رب البيت أو ربه على شئ من ثقافة معينة استطاعت أن تجعل البيت متحفاً لثقافتها . وكثيراً ما يدخل أحدنا بيتاً لأحد المثقفين فيجد فيه الطرف العجيبة التى اكتشفها من

— ٩٥ —

أحجار أو محار أو معادن أو أحياء أو غير ذلك . وهذا بالطبع لا يتفق لكل منا .

ولكن الشيء المهم الذى نقصد اليه أن يجد البيت منا عناية فنية فى تأييده . وأن ننظر اليه كأنه متحف عائلى يجمع طرف الجدود والاحفاد فيتخذ بذلك سمة من سمات الخلود فلا يكون مادة بل فكرة .

البيت للضيافة

للبيت خصوصية عائلية يحس بها أعضاؤه فيما يشبه المؤامرة. ذلك أن لهم أسراراً وأهدافاً وأساليب يتفقون عليها في مجتمعهم الصغير ولا يفشونها لغيرهم. وهذه الخصوصية تربطهم وتزيد احساسهم العائلي

ولكن البيت يجب ألا يستأثر بعلاقاتنا الاجتماعية. ومهما تمتدح ارتباط الآباء بالآباء والزوج بزوجته، ومهما يكن الجو العائلي من حيث التعلق الحميم بين أعضاء البيت، فإن البيوت تحتاج إلى تهوية اجتماعية بالضيافة والزيارة، والمبالغة في الارتباط العائلي هي شطط الفضيلة، فضيلة التعلق العائلي

ولكن فرد منا حياة سرية أو كالسرية كأنها العقل الكامن في النفس يوجهنا من حيث لا ندرى، ولكل منا أيضاً حياة اجتماعية علنية كأنها الوجدان الذي ينتقد ويحاسب ويراجع. والحياة السوية هي تلك التي تصالح بين الكامنة والوجدان وتوفق بينهما، ففي البيت نحن نختمر ونهبط. وفي المجتمع نحن نتكشف ونباشر. ويجب لذلك أن نغنى بالضيافة والزيارة لأنهما وسيلة الاتصال بين البيت والمجتمع

يجب أن نغنى بالبيت أجل العناية حتى نجعله متحفاً يحوى
تراث الجدود وطرف الحضارة وألوان الرفاهية . ولكن يجب
أن نتوفى حبسة الجدران لأنها تحبس النفس عن التوسع
والنمو والترقى

ولذلك نصحبنا بضرورة الخروج من وقت لآخر إلى المطاعم
العامة أو المتزهات الخلوية . ولذلك نصحبنا أيضاً بضرورة
التخفيف من أعباء البيت حتى لا يستحيل إلى ورشة لا ينقطع
العمل فيها للطبخ والغسل

والضيافة من الفنون الراقية التى يجب أن نفصلها من
فضيلة الكرم . ذلك لأننا نقرن الكرم إلى الموائد المطهمة
وألوان الطعام السخية

والضيافة العصرية بعيدة كل البعد عن هذا الشره المادى .
وقد أنارتنا السيدة نظلة الحكيم فى محاضرات مختلفة عن
الضيافة العصرية التى يجب أن يكون هدفها ترقية العائلات
بالتعارف والتنوير

وفى مدينة مثل القاهرة حيث تتعدد المطاعم وتختلف على
موائدها الألوان لا يكون من مفاخر ربة البيت أن تعد
لضيوفها مائدة يتوسطها الدندى وتحشد عليها اللحوم والحلويات .

ويستطيع وجيه في الريف أن يزودنا بهذه المائدة المادية ولكنه يعجز عن أمتاعنا بالضيافة المهدبة المنيرة

وخير من العناية بالطعام أن نغني بالاثاث في إيجاد مقاعد مريحة للضيوف لا تكون للزينة ولكن للراحة

ولذلك يجب أن نستبعد من أذهاننا فكرة الكرم الشرق حين نفكر في الضيافة الراقية. وصحيح أنه لا بد للضيافة من شيء أو أشياء من الطعام والشراب . ولكن يكون ذلك في حدود التعقل والإعتدال . لأننا حين نستضيف أو نستضاف نؤثر غذاء النفوس على غذاء البطون ونهوى الاستماع إلى حديث يعلننا وينيرنا كما نحب لقاء الشخصيات الفذة التي لا يتيسر لنا لقاءها إلا في مثل هذه الفرص

ولذلك يجب أن ندرس فن الضيافة باعتباره جزءاً خاصاً من الحياة العامة . فنعين للعائلة يوماً كل أسبوع للضيافة ونجعل الشاي أو المشروبات مع القليل من الاطعمة الخفيفة كالسندويتش كل ما تقدمه للضيوف . وتقديم الشاي خير من اعداد العشاء ذلك لانه يتيح سهرة طويلة تبدأ من الساعة الخامسة وقد تنتهى في الساعة التاسعة أو العاشرة ثم هو لا يهظنا بتكاليفه فيثبطنا عن المواظبة

ويجب أن يكون للضيافة الحسنة بؤرة تجمع الضيوف .
وقد يكون رب البيت أو ربة هذه البؤرة إذا كان أحدهما ممتازاً
له مكانة اجتماعية أو أدبية أو اعتبارات نشأت إلى الوقوف
عليها . كأن يكون أحدهما عضواً في جمعية لها نشاط معين .
ولكن إذا لم يكن هذا متيسراً فإن من الحسن أن تدعى شخصية
بممتازة أو ترتب محاضرة في موضوع يهتم له الضيوف . ثم
يتناقش الضيوف . ولسنا نقصد إلى أن نقول أنه يجب إيجاد
محاضر فذ في كل ضيافة . فإن هذه الحال المثلى لا تتوافر على
على الدوام ولكن ربة البيت التي تتجه هذه الوجهة تستطيع
في غياب المحاضر أن تجعل الحديث يدور حول موضوع سياسي
أو اجتماعي يشغل الضيوف ويلهمهم

والضيافة ، كما قلنا ، تهوية اجتماعية للبيت . وهي تحرك
أعضاء العائلة والضيوف إلى ما يشبه المباراة الفنية في الزى
واللغة والشخصية . كما أنها ، أي الضيافة ، تربي أبناء البيت الناشئين
على المؤانسة الاجتماعية فلا ينمو الصبي ، ثم الشاب ، في حياة
انفرادية معزولة . وقد ينشأ خاماً مربوك الحركة ثقيل اللسان
لا يعرف كيف يتحدث إلى آنسة أو كيف يشترك في سمر
مهدب منير

— ١٠٠ —

. وهناك كتب كثيرة في اللغات الأجنبية تصف فن الضيافة
سواء من ناحيته المادية بتهيئة الطعام والشراب الخفيفين
أو ناحيته الاجتماعية بإيجاد ألوان من السمر المسلي
وفن الضيافة يقتضى العناية باختيار الأصدقاء والمحافظة
على صداقتهم فان الاهتمام إلى صديق والاستمتاع بصداقته
طوال العمر أو معظمه هما حظ عظيم ومتعة سامية لمن يوفق
اليهما . والصداقة لا تنهض ولا تعيش إلا على أسس من العلاقات
الروحية التي أثمرها اشتراك في الثقافة أو الأهداف والمثلثات
الاجتماعية

البيت معهد حر

البيت في الاقطار المتقدمة في أوروبا وأمريكا معهد حر
لا تسوده سلطة الأب الا توقيراطية. ينشأ فيه الاولاد في مجتمع
راق يختلطون بالضيوف ويجدون في هذا الاختلاط تنويراً
وتدريباً على المعاملة والايانس والحديث والكلمة العذبة ،
والعبارة المهذبة . كما تجد الزوجة فيه مجالاً لترقية شخصيتها بما
تتحمل من تبعات نحو زوجها وأولادها .

وكلنا البيت والعائلة تندرجان في معناهما . والبيت الا مثل
هو الذي تسود المساواة فيه أعضاء العائلة ليس بين الزوج
وزوجته فقط بل بينهما وبين الاولاد

وإذا كان هؤلاء في سن صغيرة يحتاجون إلى الإرشاد فانه
يجب أن يكون خالياً من الاستبداد والتسلط . لأننا يجب أن
ننشد مبادئ الثورة الكبرى ، أي الثورة الفرنسية ، في البيت
قبل أن نشدها في المجتمع . أي يجب أن نعمم مبادئ الحرية
والإخاء والمساواة بين أعضاء البيت قبل أن نعممها في المجتمع .
ويجب أن يتمرن أعضاء العائلة على ممارسة النظام الديمقراطي
في البيت قبل أن يمارسوه في المجتمع .

واعظم ما يكون الشخصيه فى الرجال والنساء هو الحرية. اى الحرية التى تلقى على عواتقهم تبعات وواجبات يتحملونها. فيؤدى تحملها الى نموهم. وإذا انعدمت الحرية من البيت استحال إلى سجن. وبعيد بل محال أن تكون الشخصيه فى السجن حيث لا مجال للحرية أى للاختيار والتفكير واحساس التبعة والواجب، هذا الاحساس الذى ينشط الذهن والجسم ويحمل على التفكير والعمل.

وفى الحياة هو فى النهاية فن تكوين الشخصيه. إذ ليس شئ أجمل فى هذا الكون من الشخصيه الياقة التى عاش صاحبها فى حرية الفكر والعمل وفى تحمل التبعات والواجبات حتى تدرب وتمهر وصارت له فلسفة تعين اتجاهاته وغاياته. فهو يسير فى الدنيا وهو على نور وهدى.

ونحن فى مصر، للعبء الباهظ الذى نحمله من تقاليدنا الماضيه، نتوجس من الحرية ونخشى الاختلاط ونضع القيود والحدود هنا وهناك أمام الأطفال والفتيات والسيدات. فلا نجد شخصياتنا التربيه التى تؤدى الى انضاجها وابتاعها. فينشأ الشاب وهو فى خوف من الدنيا لا يقتحم فى تفكيره أو عمله. وتنشأ الفتاة وهى محجمة مترجعة تلتزم الصمت والسكون والاستحياء

- ١٠٣ -

والتراجع كأنما هذه خطة حياتها. فلا تحي الحياة المليئة ولا تزدان
مرشاقة الايماء ولباقة الكلمة ولذلك تخسر كثيراً من جمالها
الروحي ، هذا الجمال الذي لا يعوض منه جمال الجسم الذي يبدو
راكداً جامداً . وهو كذلك بالمقارنة إلى الفتاة الاوربية التي
تتذبذب حيويتها طرباً في شخصية مغنطيسية تواجه الدنيا في
شجاعة وانطلاق واستطلاع في حين تواجه فئاتنا المصرية
دنياهها في تقلص وخوف من الاستطلاع . وذلك لأن الأولى
عاشت في حرية في حين عاشت الثانية في قيود التقاليد .

ولذلك يقتضينا فن الحياة أن نجعل الحرية تستفيض في
البيت . وإذا قضى الحظ أن يتزوج الشاب فتاة دونه في الثقافة
فيجب أن يدأب في رفعها إلى مستواه وأن يجعل من وسطه
الاجتماعي ما يحملها على الارتقاء معنى بذلك أن نختار من الضيوف
والزائرين ، الذين يتبادلواياهم الزيارة ، أولئك الأحرار
المتعلمين الذين يحضرونها الى أن تثقف عقلها وأن تنتج
الاتجاهات التي تزيد البيت فذاً وجمالاً كما تزيد حيانتها نصجاً وإبداعاً
وقد يتعب الشاب في سنيده الأولى من الزواج وهو يواجه
زوجته هذا التوجيه ولكنه يجد المكافأة بعد ذلك على هذا
التعب في سنوات عديدة من الهناء الذي تثمره مزاملة قائمة على
المساواة الحقة في الميزات والتأنيقات الذهنية .

أما إذا أهمل تثقيفها فانه سرعان ما يجد الانفصال الروحي قائماً بينه وبينها بحيث يعيشان وكأنهما جاران يشتركان في مأوى وكما نخشى نحن حرية المرأة كذلك نخشى حرية الصبيان فنحرمهم عما لا نحرّم منه حتى الحيوانات التي يتمتع أطفالها بالطفولة والصبا فترهقهم بالدرس في الوقت الذي تصرخ فيه طبيعتهم بالرغبة في اللعب والمرح. بل أحياناً، وحين يزورنا ضيوف، نحاول أن نمنعهم من الاختلاط بهم وبذلك نحرمهم من التربية الاجتماعية الحسنة التي يستعيضون منها تربية اجتماعية فاسدة باختلاطهم بزملاء لهم قد نشأوا في بيئة غير حسنة.

وشبابنا في مصر يجهلون أشياء كثيرة عن البيوت الاوربية والافرنكية. وهم يقرأون القصص أو يرون المسرحيات السينمائية التي تعرض شذوذات الحياة أكثر مما تعرض قواعدها فيتوهمون السوء والزيف في حياة المتمدنين. وينشأون على استمساك بالحياة الشرقية التقليدية ويتمصبون لها. فينكرون الحرية على المرأة والأولاد ويمارسون معهم حياة الانكفاف والاحجام، تلك الحياة التي تجعلهم يعيشون في نسل أو ما يقاربه، ويكرهون متع الحياة العائلية ويتوقونها.

أجل. إن شبابنا يجهلون ان الخادمة الاوربية تقتنى مكتبة

فى غرفتها لا تقبل مجلداتها عن مائتى أو ثلاثمائة مجلد وهى تصر
على أن تكون لها ساعات فراغ للقراءة والدرس . ويجهلون ان
الضيافة لا تنقطع فى البيت الأوربى الراقى . وأن الأولاد
يدعون أصدقاءهم إلى ولائم فى البيت فيجدون التشجيع من
آبائهم على هذا النشاط الذى يكسبهم المراتبة الاجتماعية
والضيافة الراقية . وأن الاختلاط بين الجلسين لا ينقطع منذ
الطفولة إلى الشيخوخة وهذا الاختلاط يدرّب الفتى والفتاة على
الرشاقة ويوجه الغرائز الجلوسية وجهتها السوية ويمنع الشذوذات
البشعة التى تفسد فى المجتمعات الانفصالية فى الأمم الشرقية .
فالحياة هناك أهلاً وأمتع والشخصية أتم وأينع .

يجب أن نعيش في حاضرننا

نحن لانعيش حياة واحدة لأن لنا حيوات مختلفة : حياة الطفولة ثم الصبا ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة . ولكل من هذه الحيوات أفراحها وأتراحها واختباراتها وليس من حق أحد ، كالوالدين أو المربين ، أن يحرمنا من إحدى هذه الحيوات . وإذا فاتتنا حياة الصبا بلا تمتع ، وإذا عوملنا في أثنائها كما لو كنا شباناً ، فانا عندئذ نكون بمثابة من لم يحيي حياة معينة كان من حقه أن يحياها . إذ هي لن تعود .

ولكن هذا هو ما نرى في عصرنا . فان كثيراً من الآباء يحرمون أبناءهم من صباهم ويكلفونهم واجبات الشباب إعداداً للمستقبل . كأن الحاضر لا قيمة له ، وكأنه يجب أن يضحي به من أجل المستقبل ، كما يضحي بالصبا من أجل الشباب . وكثيراً ما نرى صبياناً بين الثامنة والخامسة عشرة يقضون فراغهم بعد المدرسة في الدراسة إما بضغط آبائهم وإما بترتيبات جهنمية حين يحضر المعلمون اليهم في البيت ويقهرونهم على الدرس . مع أن هذه الفترة من العمر تنادى باللعب والمرح وبالتجارب التي يخرعها الصبي لفهم الدنيا . وليس من حقنا أن نحرمه منها .

وهنا نعود إلى القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية . فان

الأولى تطالبنا بمعاملة الصبي باعتبار أنه صبي فقط يعيش ويستمتع بحاضره . لأن هذا هو حقه الطبيعي . ولكن القيم الاجتماعية تتغلب علينا فنفكر في مستقبله . ولأننا نخشى هذا المستقبل ، للمباراة العامة التي نتوهم أنها تسوده ، نبالغ في تفكيرنا إلى حد القلق فلا نفكر في منطق وتعقل ولكن في خوف وفزع . ونسرف في تأكيد الدراسة وحرمان الصبي من صباه أى حرمانه من إحدى حيواته التي لن تعود إليه . ولو عقلنا لأحسننا الإجراء في هذا العمل .

وليس من شك في أن نظام المباراة الذي نعيش فيه، والذي يسود مجتمعنا، يجعلنا جميعاً في خوف دائم من المستقبل. ولذلك نكاد نقضى عمرنا كله في التهيؤ لهذا المستقبل . وهذا الخوف يستحيل أحياناً إلى قلق نيوروزى أى إرهاق نفسى نعجز عن تحمله وهو يبدو في خوف أو فزع . فان البخل الذى يحرم نفسه من المتع الصغيرة وهو يجمع قرشاً على قرش إنما يفعل ذلك لمركبات نفسية هى في حقيقتها أمراض يحتاج إلى المعالجة منها . وهو حين يسأل عن الأسباب التي تحمله على هذا البخل يجب بأنه يخشى المستقبل ويتهيباً لليوم الأسود بالقرش الأبيض . مع أن من يتأمل صميم نفسه يعرف أنه لن يخرج هذا القرش

الأيض المدخر مهما اشتدت الحلوكة في هذا اليوم الاسود المنتظر . لأن الواقع أن البخل نشأ عنده من الخوف من المباراة العامة التي لا تجعل أحدا مطمئناً على مستقبله فأسرف في التهيؤ لهذا المستقبل . وانجه الوجهة النفسية التشاؤمية حتى صار البخل عادة . وهذه العادة تجعله يعيش على هامش الحياة التي قد تطول . ولكنها تطول هزيلة بلا عرض أوعمق . والعادة لثبوتها تحرمه من الترفيه عن نفسه مهما ساءت الاحوال .

ونحن جميعاً نحتقر البخل . ولكننا ننسى أننا حين نحرم الصبي من صباه إنما نتجه وجهه هذا البخل في الخوف من المستقبل . وننسى أننا حين نرصد من وقتنا أحسن ساعاته لاقتناء العقارات والاثراء إنما نتجه هذه الوجهة أيضاً وإن كنا لا نبلغ درجة البخل في الحرمان .

وفن الحياة يقتضي أن نعيش في حاضرننا فنتمتع بمتع الطفولة في طفولتنا . ومتع الصبا في صبانا ومتع الشباب في شبابنا . ولا نؤجل شيئاً من ذلك تهيواً للمستقبل . لأننا لسنا واثقين من هذا المستقبل ثقتنا بالحاضر . فإذا حرمننا الشاب من متع شبابه بدعوى أنه يستعد للمستقبل فاننا لاثق بأنه سيعيش إلى هذا المستقبل المنتظر .

ولسنا مع ذلك ننكر هذا المستقبل ونتعاضد عنه . ولسنا
نعقد أن من يعيش فى حاضره إنما يعيش أيضاً لمستقبله .
ونعى المعيشة السليمة . فان هناك فرقاً بين اثنين يخافان
المستقبل . أحدهما يبخل ويقتري ويبالغ فى الحرمان والآخر
يؤمن بأداء قسط سنوى لحدى شركات التأمين مثلاً

وهناك أيضاً فرق بين تلميذ يدرس فى المدرسة ويلعب
خارجها أو يستمتع بصباه أو شبابه ، وبين آخر يرهق بتكاليف
مدرسية أخرى فى بيته ، تراه قد حبس نفسه بعيداً عن والديه
وأخوته وسهر الليالى

والرجل السوى الذى تترن أعصابه يكتسب من حاضرة
بصيرة لمستقبله ويستطيع لذلك أن ينظر اليه مطمئناً فلا يجنح
إلى التقدير ولا يهرول فى جهده لاقتناء المال

وإذا عشنا فى حاضرنا ومارسنا اهتماماته وهمومه ، وتمتعنا بمتعته
فاننا بهذا السلوك نفسه ، نجدنا قد استعدنا للمستقبل . فالرجل
الذى تعود مثلاً القراءة واقتناء الكتب ومداومة القراءة للجريدة
والمجلة إنما يتمتع بكل هذه الممارسات ولكنه زيادة على ذلك
يتيحها لشيخوخة يقظة بعيدة عن السأم والتبلد .

وكذلك الرجل الذى مارس عملاً كاسباً وانتفع بالتأمينات

المألوفة يسير نحو المستقبل في طمأنينة .

أما إذا كانت الأيام حبلية بمفاجآت ، كما رأينا في الازمات الاقتصادية الماضية ، فان بصيرة العاقل وفزع المجنون وتقدير البخيل ، كل هذا يستوى أمام تلك المفاجآت . أى جميعنا عندئذ سواء . وعندئذ ينتقل الاهتمام بالمستقبل من يد الفرد إلى يد الدولة

ومن المؤلف أن نجد شخصاً يكدم متعباً مهموماً في اقتناء الثروة وفي نفسه شوق إلى الاستمتاع فهو يحلم بالبيت الذي سوف يبنيه أو بيضة الفدادين التي سوف يزرعها ويجد فيها الاتصال بالطبيعة . أو هو يحلم بالسياحة في أوروبا . وقد يحلم أيضاً باستمتاعات ثقافية مختلفة ويضع في برنامجه شراء مكتبة تحوى آلاف المجلدات التي تنيره وتثقفه . ويفعل ذلك وهو في الثلاثين أو في الأربعين ويرصد كل وقته للجمع والاقتناء والاثراء

ومثل هذا يجب أن نقول له : أنت مخطئ . لأنك حين تصل إلى سن الستين تكون العادات التي مارستها كل يوم من حياتك الماضية قد رسخت فيك فلن تستطيع تغييرها .

ثم وأنت في الستين سوف تكون لك أذواق تختلف عما لك الآن وأنت في الثلاثين أو الأربعين

— ١١١ —

ولذلك يجب أن تعيش في حاضرك وتبدأ الآن في استمتاعك وتحقيق أحلامك . ولا تؤجل متعك إلى سنين قادمة ربما تموت أنت قبل بلوغها . أو ربما تموت ككفاءتك للاستمتاع بها . إذ أن لكل سن متعها الخاصة . فمتع الشباب غير متع الكهولة ومتع الكهولة غير متع الشيخوخة . ومتع الصبا غير متع الشباب .

النمو والتطور

عندما تتأمل رجلاً جامداً رجعيّاً وآخر متطوراً ارتقائياً نجد أن لسلك منهما اتجاهها قد عين مزاجاً خاصاً . فالأول في صميمه متشائم يخشى الدنيا ويتوقع الكوارث ولا ينتظر خيراً من أى تغيير . وهو لذلك متبلد يؤثر السكون على الحركة . في حين أن الثانى ، ذلك المتطور الذى لا يبالى بالتغيير ، متفائل بالدنيا يؤمن بالارتقاء كأنه ديانتة السياسية وهو يدعو إلى نهضة ما فى السياسة أو الاقتصاد أو إلى تغيير فى الأدب أو الاجتماع . ولذلك نستطيع ، فى معنى ما ، أن نعد الجمود والرجعية مرضين يلشآن من الخوف .

وقد يكون المرجع والاساس لهذا الخوف أن الرجعى قد أسيئت معاملته أيام طفولته فأهين وضرب أو عومل بالكرهه والقسوة حتى صار بعد ذلك يجد أن السلامة والطمأنينة لا تكونان إلا فى استبقاء حالته ، إذ هو على الدوام يتوقع أسوأ منها ، وفى تجنب أى تغيير إذ هو يوجس شراً مما هو فيه .

والجامد الرجعى لا يحى الحياة الطبيعية . لأن النمو والتطور من سنن الطبيعة التى تشهد بهما ألف مليون سنة من تاريخ

الأحياء . ومعنى هذا أنهما أصيلان فى أعماق سريرتنا وأنتا لن
نعيش المعيشة السوية وإن نقارب السعادة ، أو على الأقل
السعادة السلية ، إلا إذا كنا فى نمو وتطور لا ينقطعان طوال
حياتنا .

بل أحيانا ، حين نتأمل أحلام اليقظة التى نستسلم اليها فى
لذة ، نجد أننا نطلب التطور كما لو كان شهوة فى نفوسنا . أى
أننا نحس أننا غير راضين عن حالتنا إذ ندأب فى التفكير فى
فى تغييرها . وليس الإيمان بالمستقبل ، بل بالشجاعة والإقدام
سوى إيمان بالنمو والتطور والارتقاء . وكذلك ليست المحافظة
والجمود والرجعية سوى الجبن والخوف . وكلاهما يحملنا على
الركود والتقليص .

والأمم الشرقية ، لفرط ما عانت من مظالم ملوكها
وأمرائها وحاكميها يغلب عليها الجمود إذ هى على الدوام متشائمة
بالمستقبل تخشاه وتراجع عنه كأنها تريد أن تعيش فى الماضى .
أما الأمم الأوروبية فتكاد ترقص للمستقبل وهى ترضى بالتغيير
والتطور وقد جعلت الارتقاء مذهباً

وإيس من السداد هنا أن ننصح للقارىء أن يكون متفائلاً
وأن يتجنب التشاؤم . لأن هاتين الحالتين قد تكونتا فى الأغلب

منذ الطفولة أو لأن كوارث الحياة قد تراكت فملأت القلب
شكوكا وشبهات بشأن المستقبل . ولكن من السداد أن نبين
أننا لن نستطيع ان نتطور ، أى نعيش وفق سنن الطبيعة ، ما لم
نكن متفائلين . وعلى كل قارىء عندئذ ان يحلل تشاؤمه وخوفه
وأن يعرف مرجعهما . وهو إذا هبط على هذا المارجع عاد إلى
التفاؤل والشجاعة .

واوضح المظاهر للأرتقاء والتطور والنمو هو الثقافة .
وصحيح ان هناك من يتجه ارتقاؤهم وجهة مالية أو اجتماعية او
سياسية فيبرزون فى هذه الجهات ويحنون منها ثمرات السرور .
ولكنها بالمقارنه إلى الثقافة تدم ثمرات زائلة متقلبة ليست
لقيماتها ثبات القيم الثقافية .

ذلك أننا عند ما نرقى بالثقافة ارتقاء نفسياً ذاتياً لا يستطيع
احد او ظرف ان ينتزعه منا . والنفس تتطور بالتغير الثقافى
فتجدد وكأنها تستعيد الصبا والشباب وتهبط على عرالم جديدة
لم يكن لها بها معرفة من قبل .

والذى نحب أن تثبته ونؤكد انه ما دمنا فى تطور ثقافى
فإننا نتجنب السأم والجود والتبلد فتمتلئ الدنيا حولنا مباهج
فلا يكرهنا اليأس بل تتحمل حتى الكوارث المرهقة .

وإذا اعتدنا الثقافة فإن الأغلب أننا نخرج منها بمذهب كفاحي للخير البشري . وهذا المذهب يغذونا وينير بصيرتنا عن مغزى الحياة كما أنه يوفر لنا اهتمامات لاتنقطع . وما دمنا في هذه الاهتمامات فأننا لن نحس هذا السأم القاتل الذي يغمر حياة المنغمسين في الملذات حين يأجمونها متبرمين منها عازفين عنها .

وفن الحياة هو ، في معنى ما ، فن العيش في سرور إن لم يكن في سعادة . ولذلك يجب أن نوفر لأنفسنا احساسات السعادة بإيجاد وسائل الرفاهية الذهنية والمادية .

وعندما نعمد إلى دراسة ، نحس إحساساً عميقاً بلذة التطور . ولذلك نحتاج ، كي نوفرها ، إلى برامج ثقافية متواصلة تحملنا على مراحل الحياة وتكفل لنا شباب الذهن وتجده .

وكلما تقدمنا في السن ، وخاصة عندما نتجاوز الستين ، يتوانى نشاطنا وقد نتبدل أو نجمد . ولكن ، إذا كنا قد تعودنا الدراسة وجعلنا منها منهجاً للحياة ، فأننا ندخل في دور الكهولة والشيخوخة ونحن مستبقين لشبابنا مبتهجين بالدنيا قد احتفظنا بكلمات اللغة اى بالأفكار . وقد كررنا هذا الكلام . ولكن مهما نكرره فأننا في حاجة إلى تأكيد إذ ليس هناك ضمان

للشيخوخة السعيدة إلا مع الثقافة الدائمة التي تستبق الذاكرة
في حيويتها القديمة

وهناك ألوان من الارتقاء كثيرا ما نأججه . فاننا عندما
نندفع في اقتناء المال ، او عندما نبذل جهودنا كي نحصل على
مركز اجتماعي كنا نطمح اليه ، نجد ان الهدف الذي وصلنا
اليه دون ما املنا وتمنيننا من حيث قيمته في جلب السرور إلى
ففوسنا . إلا الثقافة فانها تملأنا غبطة ولذة اكبر مما كنا نحلم به
ولعل مرجع هذا ان آفاق الثقافة واسعة متشعبة ليست لها
نهاية في حين ان للبركز الاجتماعي او المالى نهاية . ولذلك ان
نعرف السأم إذا جعلنا غايتنا من النشاط والنمو ثقافية .

الاتصال بالطبيعة

لا يسهل على أى إنسان أن يتجرد من القيم الاجتماعية ،
أو حتى يتساح في الكثير منها ، إلا بمجهود شاق يضنيه و يقيم من .
المجتمع ، الذى يرتضى هذه القيم ، خصها له . ولكن يجب أن
نتنبه من وقت إلى آخر إلى هذه القيم الاجتماعية ، حتى لا ننساق
فيها ذاهلين . وحتى لا ندعى أننا بشر قبل أن نكون مصريين
أو فرنسيين أو عرباً . واتصالنا بالطبيعة جدير بأن يحدث لنا
هذا الوجدان .

ذلك أن حياة الحضارة تغمرنا وتسومنا أوزانها وقيمها .
فالنجاح فيها يقاس بالقدرة على اقتناء المال . والجمال فيها ائاث
فاخر أو جواهر غالية أو أتوميل مطهم أو رسم على جدران .
أونحو ذلك مما ننساق فيه فتوهم أننا سادة نختار ونقرر مع أن
الواقع ، أننا فى الأكثر ، عبيد العرف الاجتماعى الذى يأبى .
علينا الاستقلال .

ومن وقت لآخر نرى أو نقرأ عن أولئك البشريين الثائرين .
على هذا العرف الاجتماعى . مثل تولستون الذى هجر المدن
وعاش فى عزبته يصنع حذاءه بيديه . أو غاندى الذى نزع عن .

جسمه ملابس الحضارة وقنع بشملة يبسطها على عاتقيه أو يأتزر بها . وهذا إلى قنوعه من الطعام باللبن والفواكه . أو ثورو الكاتب الأمريكى الذى ترك المدن وبنى لنفسه كوخاً لم يكلفه أكثر من ستة جنيهات عاش فيه سنتين إلى جنب الغابة حيث كان يحصل على طعامه من صيد السمك وصغار الحيوان والطيور . وقد قال عن هجرته هذه فى الغابة وحياة الفطرة .

« إنى اردت أن أسوق الحياة وأخرجها فى زاوية كى أعرف هل هى شىء جليل أم حقير ؟ »

وبكلمة أخرى أراد ثورو أن يخلو إلى نفسه ويستمتع الى همساتها بعيداً عن ضوضاء المدينة وضجيج الحضارة ، خالياً من تكاليفها الصغيرة والكبيرة كى يستكنه اسرارها ويصل الى أصولها ويتعرف الى الطبيعة ويقف على علاقته منها ومراسيه فيها . وكلنا يحس فى أعماق القلب والمنح اننا فى حاجة الى مثل هذه التجربة . وان العمر لا يصح أن يقضى على هذا الكوكب وهو مبثّر بين هموم واهتمامات صناعية أى صنعتها لنا الحضارة . ولذلك يجب على كل من يلشد الحياة الفنية أن ينظم هذه الحياة بحيث لا تنقطع عن الطبيعة وبحيث تبقى القيم والاوزان البشرية ماثلة فى ذهنه عالقة بقلبه يشتهيها ويتعب لها ويستمتع بها .

وهو عند ما يفعل ذلك ، وعند ما يألف الطبيعة ، سيحس انها
 أى الطبيعة تحوى ألوانا من الجمال فى الشفق عند الغروب ، وفى
 بزوغ الشمس عقب سكونة الفجر ، وفى رهبة الجبل ، وبسطة
 الصحراء ، بل فى تنوع النبات والحيوان ، مما يجعله يحتقر
 الكثير لما تحملنا الحضارة على اقتنائه ونعتنى فى جمعه والتفاحر به
 وليس من الضرورى أن نسلك سلوك ثورو فى الهجرة
 الى مكان قصي نعيش مستوحدين سنتين أو اكثر كي نصل الى
 جمال الطبيعة وكى نهتدى الى مراسينا منها . فان اللجوء الى الريف
 من وقت لآخر ، وقضاء أيام بل احيانا الساعات فيه ، يضرب بصيرتنا
 ويقرب ما بيننا وبين الطبيعة ويحملنا على التخلص من الزيادات
 والنوامى التى تنمو حولنا كما تنمو الأعشاب والطفيليات حول
 السفينة فتعطلها عن الملاحة . فان غادى لم يخسر حين نزع ١٥
 قطعة من الملابس الحضارية واكتفى بقطعة واحدة . اذ الواقع
 انه كسب . أو بكلمة اصح : هو كسب من حيث القيم البشرية
 وخسر من حيث القيم الاجتماعية .

واحيانا حين أقعد فى الريف وأتأمل القمر وهو يحيل كل
 شئ على الأرض الى خلق سحرى ، أو حين أتأمل الشفق فى
 رائعة جماله ، أو حين اخرج فى الفجر أنتظر بزوغ الشمس

والدنيا هادئة صابحة كأنها لم تخلق إلا منذ دقائق ، او تأمل اسراب الغربان وهي عائدة الى عشاها عند الغروب ، او اليمام وهو يغازل على استحياء وفي طمأنينة ، او حين تأمل هذه الحرب الخفية السرية بين النبات والحيوان فى ديسة او خيمة على جدول ، أتعجب من انسان يرضى بقضاء دقيقة واحدة فيما يسميه قتل الوقت على القهوة بدلا من ان يجرى ساعياً لاهثاً الى الريف كي يختبر هذه الدنيا فى اعماقها وصميمها .

واتعجب من انسان ، او بالأحرى انसानة ، تعتقد الجمال فى عقد من اللؤلؤ او قلادة من الألماس مع ان جبلا من هذه الجواهر لا يساوى فى جماله جمال الشفق او القمر .

ويفشو الجهل بالطبيعة ، اى بالدنيا ، حتى نجد انسانا يعرف طائفة من المعارف المكروسكوبية عن الأدب او للعلم . وهو يجهل هذه الدنيا العظيمة وطنه الأول . فلا يعرف روائعها من جماد ونبات وحيوان .

وقد جزأنا الوطنية اجزاء على هذا الكوكب . حتى صرنا لانشتاق الى رؤية جبالنا الشاخنة مثل هملايا او مساقطنا الرائعة مثل نياجرا . لآتنا نحس كأن جبل هملايا هو ملك خاص بالهنود ونياجرا هو ملك خاص بالأمريكيين .

بل الواقع اننا لانشتاق الى رؤيتهما لان القيم الاجتماعية قد تغلبت علينا . فنحن نهتم باقتناء البهارج « الجميلة » بدلا من الاهتمام بالاقتناء النفسى لجمال هذا الكوكب . وكثيرا ما ادخل البيوت التى تمتاز بحدائق فاجد اشجاراً اسأل اصحابها عن اسمائها فلا يعرفون . . . لأنهم انما غرسوها انسياقا وراء العرف وليس تقديرأ لقيمة النبات او احساساً بان الشجر قريبنا نحن . وهم يعيشون فى وحدة وجودية ولذلك لا يهتمون بالتعرف الى اسمه او اصله .

وأحيانا أجد من الحسن أن أرد بعض الداهلين الى الوجدان واعيد اليهم القيم البشرية بان اسأل احدهم : هب انك اصبت بمرض قاتل ووتقت من الاطباء أنك لن تعيش على هذا الكوكب سوى عام واحد . ثم خيرت بين ان تقتنى الف اقة من الألماس واللؤلؤ ومئة قنطار من الذهب ، او تقضى هذا العام الباقي من عمرك على هذا الكوكب فى زيارات راحة الى القطب الشمالى وجبال هملايا ومساقط نيساجرا وغابات افريقيا ترى بواسق الشجر ووحوش الحيوان وتشترك فى صيد القيطن عند القطب الجنوبى وترى القبيلة فى غاباتها فى الهند . اجل . وفوق ذلك تعرف الشعوب البشرية فى الهند واليابان ونروج واستراليا ،

— ١٢٢ —

وترى الانسان البدأى والانسان المتوحش والانسان المتمدن.
ومقدار التدمير الذى أحدثه هذا الاخير بكنوز كوكبنا .

لو خيرت بين هذين لاخترت بلا شك أن تقضى عامك فى
زيارة الارض التى 'عشت فيها ماضى عمرك وأنت محبوس
محجوز فى بقعة معينة تظن أنها كل شيء . وتقضى سنيك فى اقتناء
بهاج ليس لها غير القيمة الإجتماعية التى تعمينا عن
الاستمتاع بكوكبنا

ولا بد أن البشر فى المستقبل سينفضون عن عوانتهم
التكاليف الباهظة العديدة التى يتحملونها الآن من الحضارة
ويفكروا فى القيم البشرية . وسوف يجدون فى الآلات المنتجة ،
ل فى الطاقة الذرية ، ما يجعل العمل الإنتاجى سهلاً لا يحتاج
منا إلى قضاء الوقت أو الجهد العظيمين ، وعندئذ يعود هذا
الكوكب وطن البشر جميعاً . وعندئذ تصير الجبال والبحيرات
والغابات ، بما تحفل به من حيوان ونبات ، كنوزاً يحفظون بها
ولا ينقطعون عن زيارتها

والى أن نصل الى هذه الحال يجب أن نذكر أنفسنا على
الدوام بضرورة اتصالنا بالطبيعة ويجب أن نحتمل بالتوفيق
بين ضرورات العيش والمجتمع واللجوء الى الريف . ويجب

— ١٢٣ —

أن تكون لنا هوايات ريفية طبيعية . فان صيد السمك ينزعنا
أحياناً يوماً كاملاً من الوسط الحضارى الصناعى الى وسط
طبيعى . وكثير من المفكرين يحتاج الى مثل هذه الهواية التى
تختمر فيها السكينة وقت السكينة عند شاطئ النهر ثم يؤدي
اختيارها الى تهيئة الوجدان للإنتاج المثمر

اجل يجب ان تنلج على الدوام الى القيم البشرية ، ولا
تساق فى قيم اجتماعية تستعبدنا ، ويجب ان نذكر ان الطبيعة ،
هى الأرض والنهر والجبل والغابة والبحر والصحراء والنبات
والحيوان ، هى كنزنا الأول الذى يجب ان نقف عليه اقتناء نفسياً
وندرس جماله وتستمتع به وذلك بالإتصال الذى لا ينقطع به .

الاتجاه والرؤيا

الاتجاهات والميول والغايات هي عادات كامنة تكيف عواطفنا وتوجه نشاطنا وتثير اهتمامنا . وكثير من النجاح أو الخيبة يعزى إلى الاتجاه والغاية . لأن النفس تبقى راكدة ليس لها اهتمام . فإذا تعينت لها غاية ، يهدف إليها النشاط ، نشطت . كذلك الاتجاه يعين الأسلوب الذى نعيش فيه .

اعتبر صديا أوطالبا يتجه نحو الأولوية فى المدرسة وينصبها غاية . فهو يكند ويتعب ويثابر كي يحقق هذه الغاية . ويعود هذا الاتجاه أسلوبه فى الدراسة بحيث أنه يبتسئ كثيرا إذا زحزحه آخر عن مركزه الأول . فهنا اتجاه قد صار عادة كامنة تكيف العاطفة وتوجه النشاط وتثير الاهتمام . وليس من الضروري أن يكون هذا التلييد أذكى من غيره من المتخلفين عنه . وإنما هو يمتاز منهم بالاتجاه والغاية . وامتيازه هذا عليهم عاطفى وليس ذكائيا . لأن الاتجاه يحرك العاطفة وهذه تحرك النشاط الجسمى أو الذهنى .

اعتبر كلبا جائعا ، وآخر شعبان . فالأول يتحرك بعاطفة الجوع ويمشى وأنفه للأرض يبحث عن الطعام . وهو فى هذه

— ١٢٥ —

الحركة الجسمية متحرك العاطفة بالجوع متحرك العقل بالتفتيش .
وأنفه يرشد عقله كما ترشد عيوننا عقولنا . ولكن اعتبر الآخر
الشبعان فانه قاعد راكد أو نائم .

فالعواطف هي المواطن التي تحركنا . والانجاعات والميول
والغايات إنما هي عواطفنا التي نتحرك بها إلى الدراسة والجد
وغير ذلك . وهي كما تحرك أجسامنا تحرك أيضا أذهاننا ، فتنبه
بعد الغفلة ونشط بعد الفتور .

والتفاؤل والتشاؤم ، وكذلك الطموح والركود ، اتجاهات .
ولكل منا خارطة روحية أو ذهنية أو نفسية يرتسم بها العالم
ويحدد ما فيه من قيم وأوزان اجتماعية أو بشرية . وهذا جميعاً
يتجه نحو غاية أو يرى رؤيا ويتخذ أسلوباً . فالمثقال يتحسس
ويتحرك ويجد لذة العيش . والمتشائم يتبدل ويركد ويجد الحياة
مأسخة لا يتطعمها . ومن هنا مثلاً قيمة الدين عند المؤمن . فإنه
يجد فيه الرؤيا كما يجد الأسلوب . فيكون الدين له بمثابة
الصابورة التي تزن بها حياته ولا تتقلقل إذا ضربتها الزعازع
والكوارث .

والرؤيا هي ثمرة التفاؤل . لأن المتشائم لا يرى رؤيا . فلا
يمكن مثلاً أن تكون اشتراكيا تؤمل المساواة والإخاء بين

البشر إلا إذا كنت متفائلا . والعكس صحيح . لأن الرجعي المحافظ يؤمن بأن الشر غالب على الطبيعة البشرية التي لا تتغير ولا يمكن معالجتها . فهو لذلك متشائم بلا رؤيا . ولذلك يكافح الأول . ويركد الثاني .

وقس على هذا . فان الرؤى والمثليات ، كلتاهما تكسبنا روح الكفاح وهذا الروح يحملنا على الدراسة والرقى . فنجد لذة الحياة في الكفاح كما نرتقى به .

الكفاح ضد الاستعمار والامبريالية ، والكفاح ضد التعصب الدينى واللونى ، والكفاح ضد المرض والجهل والفقر والظلم ، كل هذا تتحرك به عواطفنا وتدشط . بل كدت أقول : تنذكى عقولنا . ونحن بهذه الأنواع من الكفاح لانخدم أمتنا فقط بل نخدم انفسنا بطريقة شخصيتنا ونجعل حياتنا حافلة بشئون ومشكلات اجتماعية وبشرية تجعلنا نتعمق ونتوسع في الحياة .

وربما كان أعظم الاتجاهات اتجاه الحب باعتباره أسلوبا للعيش . لأن الحب يزيد الفهم . أى اننا نفهم أكثر عندما نحب ونفهم أقل او أحيانا لانفهم عندما نكره . ألا ترى أن الأم تفهم الشيء الكثير من إيماءة طفلها أو أى طفل آخر إذا كانت تنجبه وجهة الحب . . فى حين غيرها الجامد أو غير المبالي

أو الكاره ، لا يفهم شيئاً ؟ .

وهناك من يقول إن الحب يعمى . ولكن الحقيقة أن
الحب يبصر ويفتح الذهن للفهم والمعرفة . ولكن الكراهة
والحقد والبغض والنفور ، كل هذه تعمى وتغشى على عيوننا
وعقولنا فلا نبصر ولا نفهم .

والرجل الذى يحب الحياة الفنية ، ويحب الإنسان والطبيعة ،
ويحب الثقافة ، يجد أنه بقدر السعة في حبه ، يزداد فهمه وتعمقه
ورغبته التى لا تنقطع فى الاستزادة من الفهم والدرس
والاستطلاع . ثم هو بهذا الحب يجد الرؤيا التى يهدف إليها
فى اصلاح مشهود أو ظلم يرفع أو اختراع يحقق . فيعيش سعيداً
بهذه الافكار ويشع ضياء على كل ما يمسه كأن ذهنه مفصفر
يضى على ما حوله .

ومثل هذا الرجل يدين بدين مقدس . ولا عبدة بأنه يخالف
التقاليد . لان الدين هو نقطة التبلور فى اختباراتنا وثقافتنا .
والرجل الذى يختبر كثيراً ويدرس كثيراً ويتجه وجهة الحب
لا بد أن يصل إلى هذه النقطة وأن يرى رؤيا الدين . ومن هنا
كفاحه وإنسانيته لانه فى جميع كفاحه الماضى إنما كان يحاول
أن يكون إنساناً إنسانياً وأن يحمل البشر على أن يكونوا
إنسانيين .

وإذا كان رجل التقاليد ينزهه بأنه ملحد أو كافر لأنه يضل في اشتباكاتة الثقافية ، فإن غيره من المتحمقين يعرف إيمانه ، هذا الإيمان الذى وصف به فولتير فى كفاحه للمتعصبين والمستبدين ازاء رجال التقاليد من كهنة رجال الدين المسيحى فى فرنسا . ونحن الآن نعرف أن الدين بل القداسة كانت فى قلب فولتير . وأن الكفر كان قلوب أولئك الكهنة .

وخلاصة القول إن فن الحياة يقتضينا أن تكون لنا اتجاهات وميول تنتهى إلى رؤيا . فنكسب منها المذهب البشرى بل الدين ونجهد ونخدم فى تفاؤل وحب ، نحب الإنسان والشرف والمجد والصحة والخير ونحب الحيوان والنبات والجبال والامهار والرسوم الفنية والمدن التاريخية . وبذلك لا نركد بل نبقى على نشاط دائم مكافحين محبين للخير كارهين للشر .

الحياة مغامرة

عندما نتأمل القصص السامية التي ألفها كتاب خالدون نجد أننا إنما نقيس هذا السمو بشيئين : أما بشخصية فذة تغمر القصة وتجعل من العيش اقتحاماً ، وتجدرح الحياة في المغامرة والدخول في الغمر العباب دون القناعة بالشواطيء والمخاضات ، وأما نجد ، بدلا من هذه الشخصية ، مشكلة حيوية عظمى نصل فيها إلى الأعماق فنفهم أكثر ونعرف أكثر في الحياة .

ومع أننا نقرأ كثيرا فانه قلما يخطر ببال أحدنا أن يعيش في هذه الدنيا كما لو كان بطلا في قصة سامية . وذلك بأن يكون هو نفسه شخصية فذة أو يكون قد اعتنق مشكلة من مشكلات البشر الحيوية فيطابق بينها وبين نفسه ويعيش لها . فهي هو وهو هي .

ولكن الواقع أن كثيرين منا ، على الرغم مما قلنا ، يطابقون بين حيواتهم وبين القصص التي يقرأون . فالشاب الذي ينكب على قراءة قصة ما إما يطابق بين نفسه وبين هذه الغراميات المتأججة في القصة . والفتاة التي تدمن الذهاب إلى الدور السينمائية إنما تطابق بين نفسها وبين فتيات الدراما التي تشاهدها . وهي تعيش ، بجميع إحساساتها ، فيما ترى من اقتحامات هؤلاء الفتيات . ولكن ، وهذا هو المهم ، هذه القصص والدرامات ليست

سامية . ولذلك فأنا المطابقة بين قارئها أو مشاهدتها وبين
ابطالها أو حوادثها ليست مما يرفع أى ليست مما يساعدنا على
أن نجعل حياتنا سامية نعيشها فى فن وحذق وتأنق ومجد .

ويجب أن نجعل حياتنا مغامرة . بل هى كذلك من أول
ساعة نخرج فيها من الرحم إلى هذا العالم . فأن الموتى الذين
لا يطيقون هذا الخروج كثيرون جداً . فأذا كانت بداية حياتنا
مغامرة فيجب إلا يغيب عنا هذا الرمز ويجب أن نستبقى هذا
الشعار سائر عمرنا . ويجب إلا ننسى أبداً أن الطمانينة التى
نتوخاها هى على الدوام جريئة ونسبية وظرفية . لأن الطمانينة
التامة هى الموت ،

ومن أجل أو أحكم الكلمات التى خلفها لنا نيتشه قوله : كل
مالا يقتلنى يقوينى . وأيضاً قوله : شئ فى خطر . وذلك أن
الحياة اختبارات فأذا واجهنا خطراً وخرجنا منه دون أن
يقتلنا فقد كسبنا الاختبار وازددنا بذلك عرفانا بالدنيا وحكمة
فى الحياة . وإذا عشنا فى خطر زال عنا الذهول الذى تتسم به
العامة وصرنا فى يقظة وتنبيه وذكاء وفهم . فتكون الدقائق عندنا
بمثابة الساعات عند غيرنا . والساعات بمثابة الأيام .
والحياة القصيرة الحافلة بالمغامرات والاقترحات خير من

- ١٣١ -

حياة طويلة هزيلة يعيشها الإنسان في ذهول، كأنه بلا وجدان.
والمخترع والمكتشف كلاهما يعيش مغامراً لأنه يسير في أرض
مجهولة لا يعرف نهايتها . وهو في هذا الاكتشاف أو الاختراع
يخس من لذة الحياة ما يجعله ينسى جميع المشقات والمصاعب .
ومن منا لا يحب مغامرة كولومبية يعيش فيها شهرين أو ثلاثة
أشهر فقط وهو يتطلع إلى قارة جديدة وبكاد يهبط عليها بدلا
من قضاء مئة سنة وهو منزو في شارع لا تضيق حدوده الجغرافية
فقط بل تضيق فيه ايضاً حدوده الذهنية والنفسية . . ؟

ونحن نعجب بحياة نابليون او غاندى لافتحامات الأول
الحربية واقتحامات الثاني الروحية . ونقرأ سير القديسين
والمصالحين والمخترعين في شوق لأننا نطابق بينها وبين انفسنا
في رغبة حارة للاقتحامات التي امتحنت حياتهم فخرجوا منها
اوفر حكمة واعمق فهماً .

ولنا بما قلننا مغزيان . المغزى الأول ألا تلتزم الدعة
والطمأنينة فتحجم ونتقلص ونراجع امام الأخطار . والمغزى
الثاني إلا نبالغ في شأن الكوارث التي تصادفنا . لأننا ، مادمننا
لم نمت فيها ، سنعيش وقد كسبنا اختبارها ومعرفتها للذين
ازدنا بهما فهما وحكمة .

وكتب الأدب العالي تكسبنا من الاختبارات ما لا يحصل

عليه في مجتمعتنا . والشعر العالى هو احسن ما فى الأدب . لأن
الشاعر يعرف أنه لن يثير فى القارىء حماسة او يلهب فيه ناراً
الا اذا ارتفع عن المبتذل المألوف من الاختبارات سواء فى
الموضوع ام فى التعبير . فهو يحملنا على اقتحامات ذهنية حتى
ولو كانت هذه الإقتحامات مقصورة على التعبير واستخراج
المعنى الخفى الفذ من الموضوع الواضح المبتذل .

واسأل ايها القارىء ، أى انسان متقدم فى السن . فإنه
لا بد آسف على تلك الفرص التى عرضت له ولم يغامر فيها بل آثر الدعة
والطمأنينة . وهو لا يأسف لأن الفرصة كانت تلوح له من
الفرص الكاسبة بل لأنه يحس أنه كان يكون أسعد لو أنه اختبرها
وعاش فيها .

وقد كان المتنبى يقول :

وكل شجاعة فى المرء تغنى ولا مثل الشجاعة فى الحكيم
الشجاعة مع الحكمة تغنى فى النهاية . العاطفة مع الوجدان
أى الشراع مع الدفة . العاطفة تدفع والوجدان يوجه .
والخوف من الإقتحامات هو فى صميمه خوف من الحياة
أو هو اسف على الخروج من الرحم وحنين الى العودة
إليه . والرجل الذى يخاف لا يعيش غير تلك الحياة النباتية
البقلية ، يعيش آمناً فى مكانه يخشى ان يتزحزح لئلا يسقط .

الحياة المليئة

عندما نتأمل المخ ، أو بالأحرى قشرته الرمادية ، نجد شبكة من ملايين الخلايا التي تربط وتستطيع أن تؤلف ملايين الافكار والمركبات الذهنية الجديدة ولكننا نمتنع من حياتنا العقلية العادية بالقليل من هذه الافكار . حتى لنستطيع أن نقول أن عشر المخ كان يكفيها . ولو أننا عنيينا منذ ميلادنا بالحياة الفكرية ، وجعلنا التربية تنتجها نحو الاستبطان والاختراع والتفكير البكر ، بدلا من التسليم بالعقائد والجري على الاسلوب الاجتماعي الفاشي، لو أننا عنيينا بهذا لكان كل منا فيلسوفاً أو عالماً مخترعاً . لان في القشرة المخية من ملايين الخلايا ما يتسع لملايين المركبات الفكرية . ولكننا نتركها باثرة في جذب بلا حرق أو غرس . فلا نعيش ملء حياتنا الذهنية بل نقتنع بالقليل منها .

وحياتنا الفكرية هي بعض حياتنا البشرية ، وإن يكن هذا البعض أفضل مما نملك . ونحن للأسف لا نعيش ملء حياتنا البشرية . فقد تطول حياتنا ولكنها لا يكاد يكون لها عرض أو هي تمتلئ بالسنين ولكن هذه السنين لا تمتلئ بالحياة . وقد دعانا الإنجيل إلى التوسع والتعمق في الحياة حين نهبنا إلى قيمة

« الحياة الوفيرة » وما الوفرة في الحياة سوى وفرة الاختبارات بالنشاط والتجدد . فالحياة الراكدة أو الجامدة ليست وفيرة أو ، على الأقل ، ليست في وفرة تلك الحياة التي تنبذب طربا ومرحا في الدنيا .

وهنا تخطر بالذهن كلمة « الحماسة » التي اختارها أبو تمام لمجموعة الأشعار التي جمعها من الشعراء الذين سبقوه . فإن البيت الخالد من أبيات الشعر هو العدسة التي تجمع المتشتت من النور في بؤرة مركزة ، فتحس العاطفة الذهنية في حماسة تشيرنا طربا أو إعجابا أو تفكيراً . ومن الحسن أن ننقل هذا المعنى إلى الحياة . إذ يجب أن نعيش في حماسة بلا ركود أو جمود أو تبلد . ويجب أن تكون حياة كل منا قصيدة من الشعر . بل يجب أن يكون لكل منا « بيت قصيد » أى هدف سام يتبلور فيه النشاط وتتجه إليه الحياة .

وهذه ، كلها من المعاني الفنية ، معاني الشعر ! التي يجب أن ننقلها إلى الحياة .

وعند التأمل نجد أن لنا ثلاث حيوات نمارسها جميعا . وهي في صميمها ثلاث ذوات .

فان لنا الذات الصغرى الأملية ، ذات الرجوع الانعكاسي ،

التي نشاهدها في الأمية والاسفنج وأحط الأحياء .
ولنا الذات الصغيرة الحيوانية ذات الشهوات والغرائز ،
للكل والتناسل والتسلط ، التي نشاهدها في الحيوانات الدنيا والعليا .
ثم هناك الذات البشرية ، ذات الوجدان أى التعقل
والقدرة على أن نرى الدنيا بما يقارب حقيقتها عندما نتجرد من
غرائزنا وننظر النظر الموضوعى .

والحياة المليئة هي الحياة الوجدانية التي تحملنا على التخلص
من الأنانية الآسنة إلى الغيرية الحية فتوسع وتعمق بما يشبه
البر الذهنى . كأن حياتنا ليست مقصورة على أبعادنا الجسمية
الشخصية بل تشمل غيرنا من البشر . وقد تكون هناك حياة أملأ ،
هي تلك التي يقول بها أو يبصر بها فرويد ويسمها « الحاسة
اللا وقيانوسية » أى زيادة في الوجدان تجعلنا نحس الاندغام
الشخصى في الكون كله بحيث نحى في ذراته وجزئياته وكواكبه
ونجومه ونباته وحيوانه .

ولكن هذا حدس فقط . وقصارى ما نستطيع أن نقوله
في يقين أن الحياة المليئة تحتاج إلى سخاء وتفاؤل . لأن أعظم
ما يحدد حياتنا ويقم حولها السدود هو البخل . وهذا البخل
ينشأ من التشاؤم الذى يحدث لنا الخوف من الاقتحامات فتبلة

ونجمد . ثم نعيش في حياة ضئيلة الاختبارات . وقد
نتهى إلى أسلوب من الزهد والنسك فنكاد ننكر الحياة

ولست مع ذلك أنكر قيمة النسك والزهد . ولكنهما
يجب أن يكونا وسيلة وليس غاية . أى أننا ننسك ونزهد
ونعتكف كي نستجم ونعود إلى الاختبارات الفنية والذهنية
والعاطفية . أى نعود بقوة متجددة . وكذلك يجب أن نمارس
العفة حتى نسمو بالتعارف الجذسى إلى مستوى من التأنى والفن
يرفعنا عن التبذل الرخيص للعاطفة . فنضع الوجدان والتعقل
مكان الغريزة الغشيمة . فلا تكون العلاقة الجنسية نهبا وخطفا
بل تأملا وحبا ، فتجدى الجمال بوجداننا فى فن وتفكير إذا
تحدى غرائزنا هو فى إغراء واغواء .

والحياة المليئة تحتاج — كما يجب أن نكرر — إلى وفرة
الاختبارات . ومعنى هذه الوفرة أن نعيش لنتعلم وندرس
الكتب والطبيعة والمجتمع . ونهتم بالسياسة والاقتصاد والتطور
البشرى . نهتم بها جميعا متفرجين وعاملين . ونعيش فيها بروح
الابتكار والتساؤل والاستطلاع حتى نفهم ويستيقظ ذكاؤنا
وتستفيض شبكة المركبات الذهنية فى القشرة الرمادية الخية .
وإذا ذكرنا البخل فلا نذكره بشأن الحرص على المال فقط .

- ١٣٧ -

وإن كان هذا أفشى مظهره . لأن أسوأ ما في البخل نزوعنا
فيه إلى التبلد والاعتكاف الذهني والعاطفي وكراهة الاختبارات
فهو لا يعيش ملء حياته .

والحياة المليئة تحتاج إلى التفاضل بالدنيا والمستقبل وإلى
السخاء وإلى دوام الاستطلاع والنمو .

الرواية

فراغنا يزداد . ويزداد في المستقبل أكثر فأكثر . وسيكون ملؤه أو الانتفاع به من أعظم المشكلات في التعليم والتربية بل سوف تكون الغاية الوحيدة من التربية هي الانتفاع بالفراغ . أى كيف نعيش ١٢ أو ١٥ ساعة كل يوم بلا عمل كاسب . أما التعليم الحر في فلن تكون له هذه الأهمية .

وفي عالمنا الحاضر طبقة من الأثرياء تعيش في فراغ كامل أو تكاد لأن وسائل العيش الممتاز موفرة لها . إذ أن أفرادها يستغلون أفراد الطبقات الأخرى . ولكن عند ما نتأمل الطرق التي تتبعها هذه الطبقة الممتازة في قضاء فراغها أو استغلالها نجد أنها ليست مما يغري . فإن سباق الخيل وصيد الحمام والصيد بالقنص في مطاردة الثعالب أو الأرانب وقضاء الليل في المقامرة أو العريضة الجنسية أو السكسوية ، كل هذا أو أشباهه لا يدل على أن هذه الطبقة المنرفة الممتازة قد عرفت شيئاً يمكن أن يوصف بأنه « فن الفراغ » بل هو يدل على أن هذه الطبقة لا تطيق فراغها ولا تستخدمه إلا على سبيل الفرار من الوقت بقتل الوقت .

وتطور الآلات والزيادة في الإنتاج وتوافر الضروريات

لكل انسان ثم توافر الكماليات في المستقبل ، ستجعلنا جميعاً في شبه تعطل . لأن طرق الانتاج العلمية التي لا مفر من استخدامها في العالم كله قريباً ستوفر للانسان حاجاته بأقل الجهد في أقصر الوقت . ولذلك سنجدنا جميعاً معطلين فارغين معظم النهار والليل نحتاج إلى ما يشغلنا . فاذا لم نجد المفيد الذي يرفعنا ويرقينا عمدنا إلى المضر الذي يحطنا .

بل نحن ، قبل أن نفكر في المستقبل ، نجد أن حاضرا يوفر لنا ، أو بالاحرى لبعضنا من أعضاء الطبقة المتوسطة ، فراغا يترجح بين اربع وعشر ساعات كل يوم . فيجب أن نملأه وان نتعلم كيف نملأه . وعند الانجليز كلية « هوبى » لما نسميه بالعربية « الهواية » أى العمل نعمله للذة فقط لا نبغى منه كسباً . وعند ما مملأ فراغنا بهواية نجد في الفراغ تخفيفاً بل معالجة للتوترات التي نستجيب بها حائقين مرهقين لمصادفات الحياة المعاكسة المتناوئة . وكلنا يعرف ان الحركة والنشاط والعمل كل هذه تخفف التوترات وتفرج عن العواطف المكظومة . فاذا كانت الحركة في عمل محبب تتجه إليه الإرادة في نشاط حتى تستحيل إلى حماسة ، فان الاتزان النفسى الذى ربما يتزعزع من ارهاق العمل الحرفى ، يعود إلينا فستأنف هذا العمل مرتاحين مستجمين .

لهذا السبب يجب أن يكون لكل منا هواية . وأن نعلم أولادنا ، وهم في الطفولة والصبا ، كيف يشغلون فراغهم . وأن ننفق بسخاء على ما يحتاجون إليه لشغله . وذلك لأن فراغهم في المستقبل سوف يزيد على فراغنا نحن . وسوف يثقل عليهم ، لهذا السبب ، أكثر مما يثقل علينا .

وعلى القارئ أن يقصد إلى إحدى المكتبات في القاهرة . ويطلب إحدى المجلات التي تعالج الهوايات واسمها « هوبيس » وهي في الأغلب انجليزية . ومن هذه المجلات يستطيع أن يستنير وأن يذتفع أو ينفع أولاده .

وأقرب الوسائل إلى الانتفاع بفراغنا أن تتعدد اهتماماتنا ودراساتنا وأعمالنا . أو ، بكلمة أخرى ، يجب ألا يكون طريقنا منفرداً في الحياة . لانعرف غير وسيلة واحدة للكسب والعيش . ولا غير وسيلة واحدة للترفيه والترويح . إذ يجب أن يكون طريقنا مزدوجاً بل خير لنا أن تتعدد الطرق .

وقلما يخلو بيت في أوروبا من غرفة يستأثر بها الزوج لايجوز لزوجته أن تتدخل في ترتيبها . وفي أغلب الأحيان تكون هذه الغرفة منزوية قريبة الى سطح البيت وهي مريحة في فوضى الأثاث والأوراق . وهي ملجأ أو معتكف يلجأ إليها الزوج كي

ينفس عن كظومه أو يفرج عن توتراته . وهى من المرافق الاجتماعية التى تمهد العقبات وتسوى التواءات التى تنشأ من العمل أو من العائلة .

وقد تكون الهواية دراسة أو دراسات معينة . ومعظم الذين يسعدون بشيخوختهم ، حين يحيلهم المجتمع على التقاعد ، يكونون فى الأغلب قد ههوا الدراسة فى لازمهم هوايتها إلى الشيخوخة . وهناك هوايات أخرى عملية كالنجارة أو تجليد الكتب أو ، للمرأة ، أنواع من التطريز والوشى والنسيج .

وأذكر انى زرت ذات مرة أحد الأندية النسوية فى القاهرة فوجدت طرازاً جميلاً خفيفاً من الكراسى عرفت ، حين سألت عن صانعه ، ان هذا الصانع موظف كتابى فى الحكومة قد هوى هذا العمل واتقنه لا يبنى منه فائدة مادية . ولكن الفائدة المادية جاءت عفووا بحيث يستطيع الآن أن يستغنى عن وظيفته الحكومية ويقتصر على النجارة .

والرجل ، او المرأة ، التى تشغله هواية ما يسعد بفراغه . ويستطيع أن يفتن بهوايته ويتأنق فى أدائها لأنه لا يعجل ولا يهرول إذ هو فى فراغ يلبسط أمامه . فهو يتقن ويتأنق . وحذا المرأة تشغل فراغها هواية مفيدة ترتقى بها اجتماعياً أو انسانياً

وتجد فيها أيضاً ما يغنيها عن الاستماع للفارغات من النساء اللاتي يملأن فراغهن بالقليل والقال .

وربما لا يكون الزمن بعيداً حين تعلم المدارس وتخرج تلاميذها أو طلبتها للحياة وليس للحرفة . وحين تغني بالفراغ والهواية أكثر مما تغني بالعمل والكسب . وفي هذه الدنيا الواسعة هناك لا أقل من مليون هواية تنتظر من يبحث عنها ويهتدى إليها . وقد تكون إحدى هذه الهوايات بذرة لإختراع أو اكتشاف جديد يحتاج إليه البشر . وهل فكرت أيها القارئ . وذكرت أن كثيراً من المخترعات والمكتشفات إنما كان ثمرة إحدى الهوايات التي ملأت فراغ أحد الهواة ؟

وفي ظروفنا الاجتماعية الحاضرة يحتاج كل منا إلى هواية . أولاً لأن حياتنا حافلة بما ينغص ويبعث على توترات وكظوم مختلفة متكررة . والهواية هنا تخفف وتعيد لنا أتراننا النفسى لأننا نجد فيها كل يوم انتصاراً وحساسة . وثانياً لأننا نرتقى بممارسة هواية ما إذ نتعلم فناً أو أى مهاره أخرى تحرك ذكائنا أو عضلاتنا . وثالثاً تحول الهواية دون الوقوع فى العادات السيئة . وأنت أيها القارئ . عندما تجول فى شوارع القاهرة وتجد المئات من الشبان السادرين الذين يقعدون على القهوات ويدخنون

—١٤٣—

في ذهول كأنهم نائمون ، أو يكرعون الخمر في غير مبالاة ، أو
تجد النساء في شجار سافراو مستتر ، فانك لا بد عند التأمل واجد
أيضاً انهم يكابدون توترات وكظوماً قد جهلوا طرق التخلص
منها . وخير الطرق في ظروفنا الحاضرة هو هواية لذينة تملأ فراغهم
وكثير مما ذكرنا في هذا الفصل قد سبق ان اشرنا إليه في
فصول سابقة . وليكننا احتجنا إلى جمع بعض الملاحظات هنا لما
لها من الدلالة على قيمة الهواية .

الخلوة

يبدو الإنسان كأنه حيوان اجتماعي لا يطيق العيش منفرداً. وهو يعد الحبس الانفرادي أقسى أنواع الحجر والتقييد لهذا السبب . فان المسجون لا يطيق انفراده بين الجدران في الزنزانة . ولذلك يعاقب المسجونون أحياناً بجرائمهم من رفقة زملائهم المسجونين ويوضعون في الزنزانة . وحضارتنا، ولغتنا، وديانتنا، وأخلاقنا، تدل على الحياة الاجتماعية .

ولكننا، لأننا نعيش في مجتمع ، نجدنا مذسقين في تياراته ، آخذين بأساليبه ، معتمدين على قيمه وأوزانه . فبرز في وجداننا حقائق العيش والكسب والوجاهة والآبهة ونعمى عن حقائق أخرى أكبر قيمة وأعظم وزناً . أى أن الحقائق الاجتماعية التافهة كثيراً ما تغطي على الحقائق البشرية الجميلة .

ومن هنا قيمة الخلوة . فان التفكير بطبيعته اجتماعي ، أى أننا نفكر بالقيم والأوزان الاجتماعية بل بكلمات اجتماعية . ولكننا لانحسن التفكير إلا في الخلوة بعيدين عن صخب المجتمع وضوضائه . والخلوة والهواية كلتاها ضرورية لنا كي نجد الاتزان النفسى والتأمل الفلسفى وكأنا بهما نبتعد عن المجتمع

ونستقل من جميع اعتباراته ونحاول أن ننحرف عن طريقه وأوضاعه كي يرى أنفسنا .

وإذا كانت الهواية تربينا لأها تتيح لذكائنا أو عضلاتنا تدريباً وتبسط لنا آفاقاً ، فإن الخلوة تتيح لنا الوقت والانفراد كي نبحت من وقت لآخر عن مراسينا في المجتمع ، بل في الكون .
لأها تنزعنا من هذا الموكب الذي نسير فيه ، أو بالأحرى ندساق فيه ، ذاهلين إلى موقف الوجدان والتردد والتأمل والتساؤل : هل نحن على صواب أم خطأ ؟ هل عاداتنا ومألوفاتنا قد غمرت حياتنا حتى صرنا نعد العرف ناموساً أزلياً والوضع القائم سنة مقدسة يجب ألا تتغير ؟

والتأمل في الخلوة يرفعنا فوق هذه الاعتبارات لأننا نحاول أن نفهم الفهم الموضوعي ، فهم الوجدان والتعقل ، بدلاً من الفهم الانسيابي الاجتماعي . كأننا بهذه الخلوة نأخذ من المجتمع « إجازة » كي نفكر وحدنا بلا تدخل منه . فنعتكف ونقارن بين القيم القديمة والقيم الجديدة . وبين ما يجري وما يجب أن يجري . وبين القيمة الاجتماعية والقيمة البشرية . والخلوة هي التي تحملي مثلاً على أن أحس أني لست مصرياً فقط إذ أنا قبل ذلك بشري أتمنى إلى ٢٢٠ مليون إنسان وليس إلى ١٧ مليون مصري فقط .

وهؤلاء هم عائلتي الكبيرة التي ترتفع فوق الوطنية والمذهب
والسلالة واللون . هم البشرية التي توج بها التطور بعد ألف مليون
سنة من الكيفاح البيولوجي هذا الكوكب . وهم الذين أفكر
فيهم حين أتخيل الإنسان بعد مليون سنة .

وما أبدع غاندى حين يصرّ على أن يختص بيوم كل أسبوع
يصوم فيه عن الكلام . فلا يخاطبه أحد ولولم يختل ولم يعتكف .
لأنه في هذا الصمت يجد خلوة ذهنية يستطيع أن يفكر فيها
دون أن يرتطم ذهنه بسؤال أو اعتراض أو اعتبار .

وكل منا محتاج إلى مثل هذا اليوم الأسبوعي . ولكن
الخلوة يجب أن تكون مادية لأننا لم نرتفع إلى مقام غاندى
حتى نأمر فنتطاع أى نطلب ألا يخاطبنا أحد فيسمع لنا . وإذا
نحن اختلينا وانفردنا وجدنا هذه الفرصة . ويحسن أن نختل بلا
كتاب أو جريدة . ولكن مع ورقة وقلم كي ندون ما يستحق
من أفكارنا الطارئة . وقد عرفت اللغة العربية كلمة « خلوتي »
وهي صفة المتصوف الذي كان يخلو ويعتكف كي يتأمل منفرداً
دون أن يشغله شاغل بشرى أو مادية . وفي حياتنا مشكلات
كثيرة تطالبنا بأن نخلو ونفكر : ما هو الدين ؟ ما هو الشرف ؟
ما هو الكون ؟ ماذا بقي لي من العمر ؟ وماذا أنا فاعل به ؟

وما هو برنامجي ، برنامج الحياة ، في السنوات الخمس القادمة ؟ هل درست ديانتي ؟ هل درست الفلك وهو أقرب العلوم إلى الديانة ؟ هل حياتي الماضية أو الحاضرة يصح أن تستمر كما هي في المستقبل ؟ أو هل يجب أن أتغير ؟

ومثل هذه المشكلات تحتاج إلى الخلوة لأنها بشرية كونية لا تضيق ولا تحد بالاعتبارات القومية أو الاجتماعية . والذهن الناضج لا يفتأ يفكر فيها ولكن لا يحسن التفكير فيها إلا في خلوة . وقد كان جيته يقول : « بدون الوحدة التامة لا أستطيع أن أنتج شيئاً بئانا » .

والواقع أن كل مفكر ، يرتفع إلى مستوى عال من المركبات الذهنية ، يحتاج إلى خلوة من وقت لآخر . وإذا نظم كل منا خلواته وجعل لها ميعاداً معيناً ، مرة في الشهر أو في الأسبوع ، ويوماً كاملاً أو بعض يوم ، فانه يجد أنه في مراجعته لحياته الماضية ، وفي تبصره بالمستقبل ، قد اهتدى إلى أساليب وأهداف ما كان ليصل إليها لو انه استسلم وانساق في المجتمع .

وهذه الحياة الاجتماعية التي تلابسنا في البيت والقهوة والنادي والمكتبة ، بل حتى في الجريدة والكتاب ، تحول دون التفكير المثمر وتشتتنا بتوافه وصغائر تبديد بها حياتنا . ولكن

الخلوة تجمع تفكيرنا في بؤرة وتفتح لنا نوافذ على فضاء آخر
قد نجد فيه ما نغير به إلى أحسن .

وليست الخلوة التي نقترح بالشئ الجديد . لأن الواقع أن
كلاً منا يخلو ويعتكف من وقت لآخر . فان أحداً يخرج إلى
قهوة نائية كي يخلو ويفكر . وعقب الغداء قد ننسطح في الفراش
لا لننام بل لنفكر في موضوع معين . بل ربما قصد أحداً إلى
طريق متنح كي يمشی فيه منفرداً للتفكير . وهلم جرأ . فنحن
نحس الحاجة الى الانفراد والخلوة ونمارسهما دون أن نحتاج
الى ارشاد . ولكن اذا جعلنا خلوتنا معينة بمواعيد كان ذلك
أنجح لتفكيرنا وأنظم لحياتنا ؟

قيمة الحب للحياة الفنية

كلمة الحب، من الكلمات التي تعدد معانيها وتختلف . ولذلك
احتاج مترجم الانجيل إلى أن يستعمل كلمة « المحبة » ، للمعنى
المسيحي الخاص . وهذا التعدد يتضح عندما يقول أحدنا : أنه
يحب البرتقال . أو يحب زوجته . أو يحب النظام . أو يحب الله .
قائنا هنا ازاء طائفة من المعاني المختلفة التي كان يجب أن يكون
لكل منها كلمة خاصة .

ونحن نقصر هنا على معنيين هما الحب الجلسي والحب
البشرى . فان كثيرين من المفكرين يرجعون حب البشر، الاخاء
والصداقة والتعاون ، إلى الحب الجلسي . كأن هذا هو الجذر
الذى إليه ترجع عواطفنا البشرية السخية . ولكن الحقيقة أن كلا
منهما يرجع إلى أصل منفصل من الآخر . فغاية الحب الجلسي
هى التماسل . وغاية الحب البشرى هى تكبير الشخصية والتعاون
الاجتماعى والرقى العائلى والنمو الذهنى .

وليس هذا الذى نسميه « حباً جسدياً » ، ضرورياً للتماسل .
فان السمك مثلاً يتناسل بالملايين . ومع ذلك لا يعرف الحب .
لان الذكر يلتق بجزائمه فى الماء . وكذلك الانثى تلتق بويضاتها
فى الماء مثله . ثم يتم التلاقح فى الماء دون أن يعرف الذكر الانثى .

وعندما تتأمل الحيوان وقت التلاقح نجد أن العاطفة الغالبة والتي تنضج من سلوكه هي عاطفة الاقتراس والاكل والانهام. فان الذكر يفترس الأنثى وليس بين الاثنين حنان. واحيانا ينقلب التلاقح إلى شجار وقسوة واقتراس. وإذا كان الحب الجنسي بين البشر قد خالطته رقة وحنان أو عطف فإنما مرجع ذلك إلى الثقافة الاجتماعية التي ارتقت بها عواطفنا.

أما الحب البشرى فمرجه إلى يلبوع آخر هو حب الأم لأولادها. وحب هؤلاء لها. وهذه العاطفة بعيدة جدا عن الحب الجنسي. إذ هي تنضج حناناً ورقة وهي تحمل الأم والأبناء على أن يترافقوا ويتعاشروا ويتعاونوا.

والإنسان البدائي كان دائماً الارتحال. فكانت الأم مع أولادها ترعاهم وتربهم. وكان تعلقهم بها يحملهم أيضاً على أن يتعلق أحداهم بالآخر. فإذا ماتت الأم مثلاً بقي الأبناء على قواعد رفقتهم السابقة يتعاشرون ويتعاونون. وهذه الأخوة بينهم هي أصل الاخاء البشرى بل أصل المجتمع.

بل نستطيع أن نزيد هذا التمييز بأن نقول إنه إذا أحب الرجل المرأة حباً عميقاً بشرياً فإن هذا الحب يحول دون الحب الجنسي. كأن هناك تناقضاً بين الاثنين : الأول كله حنان

ورقة . والثانى بعضه اقتراس وقسوة .

وعندما نتأمل الحب الجنى نجد أنه غريزة ذاهلة . ولكن
الحب البشرى عقل ووجدان . ولذلك نحن نزداد ونمو بالحب
البشرى الذى ترتقى به شخصيتنا . لأن هذا الحب يستلب منا
أحسن الخصال فى الحنان والرفقة والظرف والكياسة بل أحيانا
فى التضحية . وهذا الحب هو الذى يجعل الإنسان إنسانا .
وما ندعو اليه من إخوان بشرى ، أو ما نقدره من خصال فى
صديق ، أو ما نتعلق به من آمال نرضى بأن نصحى لتحقيقها ،
إنما كل هذ يعود الى الحب البشرى الذى كسبناه من عواطف
الأمومة والبنوة .

قلنا أن الحب البشرى عقل ووجدان . ولذلك نحن نزداد
فهماً بالحب . لأن الحب يذهب الذهن ويوقظه . وهو هنا يقيض
الحب الجنى الذى ندساق فيه بالغريزة . ولذلك أيضا كثيرا
ما نجد أن بذور العبقريّة ، أو على الأقل النبوغ ، تعود الى الحب .
لأن الصبي الذى يحب الطبيعة ويجمع الاحياء أو الزهور أو
الأصداف والمحار ، هذا الصبي يحدوه حب بشرى قد استحال
الى حب للطبيعة يذهب ذكاهه وييسط آفاقه ويكبر شخصيته . وهو
بهذا الحب أقرب ما يكون الى النبوغ أو العبقريّة . لأنه ، بالحب ،

يرى أكثر ويفهم أكثر . كما ترى الأم في ابنها وتفهم أكثر مما يرى غيرها فيه للحب الذى تحس به نحوه .

والحياة الفنية تطالبنا بأن نجعل الحب شعارنا . لأنه ، أى الحب ، يملأنا تفاؤلاً فنبتعد عن الخوف والقلق والشك ونستكثر من الأصدقاء أو على الأقل نلتزم أصدقائنا ونخدمهم فى سرور . وإذا جعلنا أساس علاقتنا بالناس والدنيا حباً فأننا لانسأم الحياة ، بل نجد كل ما فيها يدعو الى العطف والفهم . ولكن الحب مثل الشجاعة ، يحتاج الى تدريب . وصحيح أننا نكسب شيئاً من الحب العائلى أى من علاقتنا بالأم والاخوة والآب ، ولكن هذا الذى نكسبه عفواً فى طفولتنا وصباننا يحتاج الى الرعاية والتنمية . ونستطيع أن نتعود الحب بالصدقة والتعاون والضيافة والخدمة حتى ولو كانت طفولتنا قد أهملت أو كانت الفرص فيها قليلة لتنمية الحب .

والرجل الذى تنبعث فيه عاطفة الحب نحو المجتمع أو البشر هو أقرب الناس الى السعادة وهو أبعد الناس عن الشقاء النيوروزى . وكلمة السعادة من الكلمات التى يجب ألا نخلطها بإحساس السرور . ولكن الحب يبعث السعادة الحقة الدائمة أكثر مما يبعثها السرور الزائف الزائل .

ومن هنا تأكيد الأديان جميعها للحب . إذ لا يمكن أن يتأسس دين على غير الحب . لأن الدين ينشد السعادة . والحب ، بجميع مركباته الذهنية والعاطفية ، هو أعظم الأسس للسعادة . وعبرة « المركبات الذهنية والعاطفية » تحمل معنى توضيحيا للحب . ذلك ان الحب يحتاج الى تربية كما يحتاج الى مراعاة . ويجب لذلك ان يكون مثقفا من ناحية بالتربية وعملياً من ناحية اخرى بالمراعاة .

فنحن نعرف ان الرجل المثقف الذي يتجه الوجهة العالمية ويدرك المغزى للتطورات البيولوجية والتاريخية ويدأب طوال عمره في درس الشئون البشرية ، مثل هذا الرجل المثقف يحب ، لأنه يعرف ، أكثر من غيره . وقلبه سمح لأن قلبه أعرف . فانساع المعرفة سبيلاً الى اتساع الحب . ولهذا السبب ايضاً يعد الأدب في صميمه ، والفلسفة في صميمها ، دعوة الى الحب البشرى والتخير العام .

والاكتنا نحتاج ، كي نجعل الحب مزاجنا النفسى واتجاهنا الاخلاقى ، الى المراعاة . أى يجب ان نؤدى عملاً ما يحمل معنى الحب . وكل منا يستضيء هنا بمعارفه السابقة لأنه على قدر هذه المعارف يكون الضوء المنير الذى يعين الهدف والسلوك . وقد

يقنع احدها بالإحسان لمعاونة الفقراء . او الانضواء الى جمعية لمنع القسوة على الحيوان او معاونة الصيادين المشردين او نحو ذلك . ولكن هناك من يعرف اكثر لأن ثقافته اوسع واعمق وهو لذلك انفذ بصيرة في الأسباب التي تجر البؤس والمرض والرجعية والجهل . وقد يجد ، لهذا السبب ، ان الدعوة الاشتراكية والكفاح لنشرها ، خير الأعمال التي يجب ان يقوم بها لأنها جماع الإصلاحات التي ينشدها غيره متقطعة مجزأة . وقد يجد عملاً آخر . ولكن المهم اننا نحب بممارسة الحب . وان هذه الممارسة تزيد حبنا للبشر كما تزيدنا فهماً وسعادة ولو شاء أحدنا أن يصف الدين الذي يؤمن به دون أن يعين اسمه بأنه دين الحب ، لقال أحسن ما يقال وأسمى ما يقال عن الدين .

من التبلور إلى التجوهر

عندما يأخذ الكيماوى فى تحليلانه لأحدى المواد التى يقصد إلى عزلها يكون منتهى ما يشهد من نجاح أن يبلورها . أى يخرجها نقية خالصة من الاخلاط التى كانت تشوبها وهى خامه . وهذا التبلور هو محاولة للوصول إلى الجوهر أى هو تجوهر .

ونحن البشر فى حياتنا المدنية نولد وننشأ فى وسط المدينة أو الريف . فإذا كنا أطفالا تشابهت تقاسيمنا وملايح وجوهنا كما تشابه سلوكنا إلا القليل جداً ، والذي تبرزه فروق الوراثة . فنحن فى الطفولة مواد بشرية خامه لم تبلور أو تتجوهر .

ثم ندخل المدارس ونحترف الحرف ويؤثر الوسط الخاص اثره فى كل منا فنختلف . هذا تاجر وذاك محام . وهذا حوذى وذاك مزارع . وهذا كاتب موظف وذاك مهندس حر . وكل من هذه الحرف يطبع طابعه فى تقاسيم النفس والجسم . ثم تمضى السنوات ، عشرون أو ثلاثون سنة ، ونحن نلتزم حرفة بسلوكها واخلاقتها التى تقتضيها . وبمرور هذه السنين نتكشف كالزهره من التعميم إلى التخصيص ومن الحال العامة إلى حال التبلور . وكان هذه الاختبارات التى تمر بنا تصهرنا وتخرج منها الجوهر

الخاص ، أجل . هو الجواهر ولكنه جوهر الحرفة وليس جوهر الشخصية .

لذلك عندما نتأمل أحد الناس ، الذين النزموا حرفة ما ثلاثين أو أربعين سنة ، لا نكاد نخطيء في تعيين حرفته دون أن نحتاج إلى سؤاله عنها . لأنها تخبرنا وهو يتحدث لأن لهجة الحرفة غالبية عالية . كما نجد من إيماءاته واختيار أحاديثه جميع الإشارات التي تعلن عن حرفته .

وبخلاف هؤلاء نجد أن ذلك الشخص الذي تقلب في حرف كثيرة ، فهو يقال ثم سمسار ثم كاتب ثم صانع ثم مزارع ، مثل هذا الشخص لا يتبلور . فإذا قعدنا إليه لن نعين حرفته . ذلك أن اهتماماته الحرفية لا تتجمع في بؤرة بل تشعع هنا وهناك . ولذلك أيضاً لا يترك في أذهاننا ، من حيث الحرفة ، صورة معينة . ولسنا بهذا الذي ذكرنا نؤثر ذلك الملزم الحرفة ما على الآخر الذي تقلب وتغير . وإنما نريد أن نبين أن هناك تبلوراً أو تجوهرنا نكسبه من الحرفة التي نلتزمها سنين كثيرة . كأن الحرفة قد استصفت جوهرها وعينته ونحت عنه الزوائد . وعندما نتقدم في السن ، ونكون قد عينا بتربية أنفسنا وتنمية شخصيتنا ، نجد أننا أيضاً تبلور ونتجوهر . ولكن ليس

من حيث الحرفة فقط بل من حيث الشخصية . وصحيح أن الحرفة هي بعض المؤثرات في الشخصية . ولكن هناك مؤثرات أخرى عديدة إلى جانب الحرفة . وهي تبلورنا وتجوهرنا .

اعتبر شاباً فجياً خاماً واعتبر أيضاً رجلاً في الخمسين قد فضجت أخلاقه وأينعت شخصيته وقارن بين الاثنين . تجد أن الأول لا يزال في التعميم . فهو أحد الشبان ، أما الثاني فقد تخصص وله مغزى وهو رمز إلى أشياء عدة لها قيمتها الاجتماعية أو الثقافية .

وهذه الرمزية وهذا المغزى هما ثمرة الحياة الحيوية ، الحياة الفنية ، التي قضيناها ونحن نقصد إلى غاية ونتبع نهجاً وتكسب الاختبارات وننمو بها . وهي جميعاً تصهرنا وتحيل التبر إلى المعدن الخالص .

وإذا كانت غايتنا أن نصل إلى الشخصية اليانعة وأن نتبلور إلى الفكرة الجوهرية وأن يستحيل وجودنا في مجتمعنا إلى مغزى ، فإن التزام الحرفة الواحدة قد يكون عندئذ معرقلاً أو مبطئاً لأنه يحدد من حيويتنا واختباراتنا . أجل . يجب أن تكون الحرفة بعض ما يكون شخصيتنا وينميها ويبرز المغزى في حياتنا . ولكن يجب ألا تكون هي كل شيء .

وفن الحياة يقتضي أن نرقى إلى السنين ونسير في التعمير
ونحن على الدوام في ازدياد التبلور والتجهر ننفي الزيادات
ونطلب الخلاصة . وفي حياتنا أشياء كثيرة من هذه الزيادات
التي تنمو علينا كما تنمو صغار المحار والودع على السرطان في
البحر فتعوق سباحته وتتطفل على جسمه . فهناك مثلاً التزامات
« اجتماعية » تبعثر وقتنا . وهناك « مشاغل » مالية تستهلك
طاقتنا الحيوية . بل هناك مطاعم نشأت ونمت معناب قوة التكرار
وحكم العرف الاجتماعي إذا تأملناها بعد الحسنيين الفيناها عقيمة
تشغلنا عن الجوهر والخلاصة وتمنعنا من أن نعيش المعيشة
الوجدانية البقطة فيما بقى لنا من عشرين أو ثلاثين سنة .

لنكن أدباء وشعراء

ينشأ الترف للخاصة التي يتوافرها الفراغ والمال فتستطيع أن تعيش فوق مستوى الكفاية والضرورة وتطلب ما نعه من الكماليات والزيادات . وأدوات الترف في أيامنا كثيرة وهي تختلف من الطبقة الصني الذي يومى بزخرفته الى عصر مضى ، الى بساط ايراني تذهي ألوانه ، الى غير ذلك مما لا يزال يقتليه الأثرياء . بل حتى الكتب القديمة قد أصبحت نوعا من الترف يشتريه الاثرياء ويحفظونه قنية تورث كأنها بعض الجواهر .

وأدوات الترف هذه تقتنى . ولكن هناك ألوانا من الترف تمارس كالآداب والشعر وسائر الفنون الجميلة . وصحيح أن هناك من يحترفونها ويجدون فيها ضرورة العيش ووسيلته بل يجدون فيها أيضاً ضرورة الحياة لأنهم ينفسون بها عن كظوم نفسية . وعلى ذلك ليست الفنون الجميلة عند من يحترفونها ترفاً . ولكنها كذلك عند من يهونونها أى يجعلون منها هواية ينفقون عليها من وقتهم ومالهم . يشترون الكتب الأدبية كي يقرأوها ثم لا يكفون بهذا بل يحاولون أن يكونوا أدباء وشعراء وفنانين . وهذه المحاولة ، وهي في الأغلب محاولات عديدة ، تنتهى الى

أن تكون ممارسة مزمنة ، هي نوع من الترف . لأن الممارس لهذه الفنون لا يتخصص . إذ هو في الأغلب موظف في الحكومة أو في شرفة . وقد يكون معلماً أو طبيباً أو تاجراً . ولكنه منذ فجر شبابه التفت الى لون من التألق الفكري عند أحد المؤلفين فاستهواه وجذبه وحمله على الاستزادة من القراءة والاطلاع . ثم بعد ذلك أخذ التأليف يداعبه فصار يكتب المقالة أو القصة ويقرض البيت أو البيتين . بل هو ربما يعتمد الى التوسع الفني فيسأل عن الموسيقى والمسرح وينتقد ويتحري الاصول ويحاول التعمق . وهو هنا لا يبغى كسباً من هذا المجهود اذ هو لا يريد احترام الفن لأنه قانع بأن يكون هاوياً لا أكثر .

وثق أيها القارئ أن هذا الهاوى الذى لا يكسب قرشاً من هوايته ، بل لعله ينفق الكثير عليها باقتناء الكتب ، هذا الهاوى لا يضيع وقته . لانه بهوايته هذه يرتفع الى أسنى ما وصل اليه التألق الذهني . ذلك ان الشاعر يتخير من الكلمات والمعاني ما يسمو على المبتذل المألوف . والأديب يحاول أن يحيل هذه الحياة التكرارية الآلية الى قصيدة فنية . وكذلك الشأن عند جميع الفنانين . والهاوى الذى يغمره هذا الجو ويعيش في

هذا المناخ ينهى الى ان يتنفس هواءه ويأخذ بمقاييسه . وعندئذ
 ينتقل التألق في التعبير الى التألق في الحياة . ويعيش عندئذ
 حياة مترفة تبدو لغيره مثل سائر الحيات ولكنهما في الصميم
 فن وترف في التفكير . ذلك أن الأديب يعيش من يده الى
 فمه كما هو الشأن في سائر الناس من حيث النشاط الذهني . لأنه
 بهذا النشاط قد استطاع ان يخلق لنفسه عالماً آخر يجترّ فيه
 أفكاره ويتخيل ويتأمل ويذكر الماضي ويبصر بالمستقبل
 ويدرس في تعب أو لذة . ثم يقيس حاضر المجتمع وواقعه بما
 ينبغي أن يكون . وهو قد وجد في الأدباء والشعراء القدامى
 والعصريين من حدوثه أحاديث الكمال والسمو والعدل والشرف
 والانسانية والرقى . فهو بهذا كله يجد في نفسه كظوماً تحمله
 على التفرّج بالكتابة . وقد ينجح ويعود أو يبدأ يصف الدواء
 لمساوى عصره . وقد لا ينجح في الوصول الى الجماهير ولكنه
 مع ذلك قد دخل مدينة الفن والأدب والشعر واستمتع بما
 فيها من كنوز . وهو لن يخرج منها طوال حياته ولن
 يهجرها الى غيرها .

أنى أقصد أن يبدأ كل شاب حياته الوجدانية بالتعرف الى
 الاداب والفنون . يبدأ متفرجاً متنزهاً . ثم يتدرج محاولاً

ثم ينتهى كائناً . وأقصد أيضاً أن يبدأ الشاب وهو يجد الفن أو الشعر أو الأدب في الكتاب ولكن يجب أن ينتهى بان يحاول ايجاد الفن والشعر والأدب في حياته . أجل ، هذه الحياة يجب الا تتركها تجرى في نثر مبتذل بل نجعل منها قصيدة أو على الأقل نجعل بعض الأبيات العالية تتخلل هذا النثر . فنعيش ولو لحظات في حياتنا نحس فيها المجد والقداسة والبطولة ونرى الجمال يشع من قلوبنا .

وهنا يضحك بعضنا ساخرأ ويقول : هذا خيال . انما الحياة مجهود نجتمع فيه ونكسر لليوم العصيب والازمة الطارئة وليست الحياة قضاء الوقت في تأليف الشعر .

وجراي انى لا أنكر قيمة المجهود نبذله كي نكفل الطعام واللباس والسكنى . ولكن هل معنى هذا ان نقضى العمر كله في الاهتمام بالطعام واللباس والسكنى ؟

ان الانسان لا يمكن أن يكون إنسانياً إذا اقتصرته اهتماماته وهمومه على الطعام واللباس والسكنى . وانما هو يرتفع إلى الانسانية عند ما تجد الثقافة الفنية ، ثقافة الترف الفكرى ، مسكناً في ذهنه تأوى إليه بل تمرح فيه وتمزج بخلاياه وتعود جزءاً لا ينفصل من حياته يوجهه ويكيفه . ويعين له التصرف والسلوك ، أى يجعله ويضطره إلى أن يعيش المعيشة الفنية .

أعرف شاباً لا يأتى إلى أن يتغذى بأى طعام يكسر حدة الجوع . ولا يبالى أى لباس يتخذ ومسكنه غرفة فوق سطح أحد المنازل . وهو بهذه المعيشة غير متمدن أى أنه لا يستمتع بمتع الحضارة فى السكنى واللباس والطعام . وهى متع لا تنكر قيمتها . ولكن هذه القيمة صغيرة جداً إلى جنب المنع الثقافية الفنية التى يلعب بها الذهن وتسمو بها النفس . والمقارنة بين الذهن المثقف وبين حضارة السكنى والطعام واللباس هى أشبه المقارنات بنظافة الجسم إلى نظافة اللباس . وقد كان هذا شأن هذا الشاب . فانه على الرغم من تقيده فى هذه الأشياء أو بالاحرى اهمالها كان لا يترك كتاباً يستحق القراءة إلا كان يفتنيه . كما كان لا يتأخر عن شراء التذكرة الغالية لحضور حفلة موسيقية . وكنت أجدّه زرى الهيئة نحىلاً والسكنى ذهنه حافل بالآثار العصرية للثقافة ونفسه فنانة لها قدرة كبيرة على التمييز الفنى . ولذلك كان فقيراً بوسطه غنياً بنفسه .

وقد يكون هذا المثال متطرفاً أو مسرفاً . ولكن الحياة الراقية تحتاج إلى أن نمارس فناً جميلاً ينعكس أثره فى نفوسنا وعقولنا . فيجب ألا نقرأ الشعر والأدب فقط بل نحاول ممارستهما . أجل . يجب أن نكون كلنا أدباء وشعراء نكتب الأدب ونقرض

— ١٦٤ —

الشعر . بل أكثر من هذا . ننقل الأدب والشعر الى حياتنا .
ليؤلف كل منا حياته . فنحترف المجد ونمارس القداسة ونزوع
الى البطولة فى الدفاع عن حق أو الانتصار لمظلوم ونفكر فى
اسمى المعانى ونعبر بأنصح الكلمات .

واولئك الذين يشدون السعادة ولا يعرفون ما هى قد
يجدونها فى ممارسة الآداب والفنون من حيث لا يدرون .
وخاصة اذا انتقلت هذه الممارسة من اللهو والتسلية الى الكفاح
والدعوة لعالم اسمى ، أى عالم يعيش فيه الناس على مرتبة سامية
من الحضارة الفنية .

السعادة

السعادة هي سلام النفس . وأول ما يجب أن نعرفه عنها أنها ليست مادية . ويجب أن نميز هنا بين السعادة والسرور لأنهما كثيرا ما يشتبهان . ذلك أن السرور ، أو اللذة ، مادية . أما السعادة ففكرية . فنحن نسعد بالفكر أو بالإيمان أو الرؤيا أو الأمل بحيث يحفزنا واحد من هذه الأشياء الأربعة إلى كفاح . ولكننا نسر ونلتذ بالطعام أو اللباس أو المال أو الشهوات الجسمية .

والمسرات واللذات ، لأنها مادية ، تتوقف على جوع يشبع أو طمع يحقق ، ثم توجم في النهاية أو تؤدي إلى السأم . ولكن السعادة ، لأنها فكرية تنهض على إيمان أو كفاح أو اتجاه ، لا توجم ولا تؤدي إلى سأم . فالقديس مثلا سعيد بإيمانه وهو يستشهد في فرح وطرب . وسعاده هنا فكرية . ولكن لذة الطعام تلتهن عند الشبع ، وقد تحدث صدودا .

وهناك اعتبارات أخرى تجعل السعادة دائمة باقية والسرور وقتيا زائلا . ذلك أننا حين نسعد بالفكرة لا يعيق سعادتنا حد أو غيره أو مقارنة مهيبة لنا بغيرنا أو إحساس النقص بأن

هناك من يحوزون أكثر مما حزننا . فقد أسرّ لأنى اشترت عزبة
أو اقتنيت أتومبيلا أو غير ذلك من المقنيات المادية . ولكنى
في هذا السرور أحس أيضاً أنى كنت أكون أكثر سروراً لو لم...
فان العزبة كانت تكون أسرّ لى لو كانت أكبر وأخصب . وكان
الأتومبيل يمتعنى أكثر لو كان من طراز آخر . وهلم جراً .
ولكن السعيد بفكرة ما لا يحسد ولا يغار . ولا يجب أن
يستأثر بفكرته . بل هو يحب العكس . وهو أن جميع الناس يسعدون
بمثل سعادته ، كما يحدث لأحدنا حين يطرب لاستماعه إلى لحن
جميل ، أو لأنه يتأمل مبنى عظيماً ، فإنه يحث رفيقه على ان يستمع
أو ينظر ويتأمل .

والسعادة ، كالشعر عند اسحق الموصلى ، أيسر مما نظن . فهى
لا تحتاج إلى التكلف أو المشقة . بل ان السرور أدهى إلى التكلف
أو المشقة من السعادة . وذلك لأن السعادة ذاتية ، فى ذوات
انفسنا ، إذ هى حال معينة أو اتجاه معين . اما السرور فإدى
نحتاج فيه إلى الاقتناء .

وقد يكون أيضاً من الحق ان نميز بين السرور والسعادة
بأن نقول ان السرور اشتهاى غريزى يتعلق بما نأكل أو نلبس
أو نسكن أو نفتنى . ولكن السعادة وجدانية مرجعها الفكر

الى العقل . والسعادة لهذا السبب تحتاج إلى التربية الفنية . بل إلى المعارف العلمية التي تكشف عن خبايا وكنوز لا تصل إلى إلى كنهها الغرائز . فأنا حين أمارس الزهو الاجتماعي باقتناء الاثاث الفاخر او بالقيام بالضيافة المطهمة اونحو ذلك أمارس نشاطا غريزيا شهوانيا له ذبول وهوامش من الغيرة والحسد والطمع . أى أنه سرور معلق ولا احتاج ان اتعلم كيف أمارسه ، ولكنى حين أقعد إلى جدول الماء وأأمل الطبيعة وهى ترضى وتزبد فى الحقول أيام الربيع واتابع فراشة فى نشاطها الغذائى او الجلسى ، احس سعادة مطلقة . سعادة مخية وجدانية وليست غريزية شهوانية . وهذه السعادة تحتاج إلى تعلم .

وإذا كان القارىء قد تابعنا فى منطقنا فانه يستطيع ان يعرف لماذا نكون سعداء عندما نتأمل مقطوعة فنية من الشعر أو الرسم أو البناء أو نستمع إلى مقطوعة فنية من الغناء أو الموسيقى . فنحن هنا ازاء سعادة مطلقة هى فوق الشهوات الغريزية . ونحن لانأجمل هذه السعادة ولا نملها كما أنها لا تبعث فىنا غيرة أو حسداً أو طمعا . ومن هنا سعادة الفنان وسعادة الفيلسوف ، كلاهما سعيد بفكرته . بل ان العالم الذى يبحث موضوعاً علمياً سعيد أيضاً بعمله لأنه يحاول كشف سر من أسرار الطبيعة المغلقة . فهو هنا

كالقديس يرى رؤيا ويعتقد أنها ستتحقق .

وليس شك أن السعادة هي سلام النفس . وهل شك أحد
في أن سلام النفس هو فكري وليس ماديا ؟

والعجب أن المتع الحقيقية في هذا العالم ، تلك المتع التي
نسعد بها أسهل حصولا وأرخص قيمة من المتع الزائفة التي
قصارى ما تؤدي أننا نسر بها سرورا وقتيا زائلا . وهي يجب
أن تكون كذلك لأن السعادة فكرية ، والفكر لا يكلفنا مالا
ولكن السرور مادي يكلفنا مالا وجهدا . وأحيانا تفوتنا فرصة
السعادة ، فرصة الحياة الفنية ، لأننا استغرقتنا حياتنا في السرور
واللذة .

ونستطيع أن نعود هنا إلى المقارنة بين القيمة البشرية
والقيمة الاجتماعية . ذلك أن قيمة السعادة بشرية : في الفكر
والاتجاه والتألق الفني والتأمل الفلسفي والرؤيا للمستقبل
والمثليات والكفاح لهذه الأشياء جميعها . وجميع هذه الصفات
ذاتية في ذات أنفسنا . وهي بشرية ليس لها قيمة اجتماعية .
ولكن قيمة السرور اجتماعية في الأغلب لأنها تنشأ من
اعتبارات المجتمع . لأننى أسرت مثلا باقتناء أتومبيل إذ أن مثل
هذا الاقتناء قد عده المجتمع تبريزا وتفوقا . أو أسرا بالثراء

لأن المجتمع يعد الثراء تفوقا ونجاحا .

وهل نستطيع أن نتعلم كيف نكون سعداء ؟

أجل . نستطيع ذلك بأن نجعل وجداننا فوق غرائزنا أى نجعل التعقل فوق الشهوات . وكذلك بأن نتعلم ونهتم بما هو أسهى من همومنا الشخصية . نهتم بالناس والسياسة والهند والامير يالية والنجوم والكواكب والحيوان والنبات ومستقبل الصحة والحيوان والنبات ومستقبل البشر وماضى الاحياء ، والتطور الماضى والقادم ، والمرض والصحة والدين والادب والفلسفة . وهذه الاهتمامات المتعددة تبسط لنا آفاقا رحبة للتفكير فلا تحدنا حدود الشهوة . ولا تستعبدنا الغرائز فى اهتمامات مادية غايتها لذة الطعام ومتعة اللباس والمسكن واقتناء مواد لا تحصى بل لا تفتأ تبعث فىنا الرغبة فى الزيادة . هذه الرغبة التى تبهدهنا بل أحيانا نسير فيها سادرين ذاهلين وقد نموت قبل أو اننا ونحن لاندرى أننا كنا مسوقين باعترارات اجتماعية هى أبعد ما تكون من السعادة .

قلنا فى أول هذا الفصل ، أننا نسعد بالفكرة او الإيمان او الرؤيا أو الأمل إذا كان أحد هذه الأربعة يحفزنا إلى الكفاح . وهنا نحتاج إلى تفصيل موجز : ذلك أن الطاقة النفسية لا تطبق

الحبس. والكنم والكفاح ولذلك فإن لشأن ما، أى شأن نعتقد أنه حسن، يفتح لنا قناة تنصرف إليها الطاقة . أما إذا حبست هذه الطاقة، فإنها تحدث لنا في الحالات الخفيفة نيوروزا أى ضيقاً عاطفياً. وفي الحالات الخطيرة تحدث سيكوزا أى جنوناً. ولذلك كثيراً ما نجد الشاب مضطرباً متشائماً تسوده هموم مهمة لا يعرف مأتاها فإذا انضوى إلى حزب سياسى مثلاً انطلق في تفاؤل يعمل ويسرّ بعمله . وهو سعيد بهذا الكفاح الذى يبعث فيه نشاطاً ويحمله على الدرس والخدمة والتعاون ويخرجه من أنانيته . وهو هنا يشعر بالسعادة .

وعلى هذا نقول إن السعادة تحتاج إلى كفاح . وسلام النفس لا يعنى ركوداً وجموداً بل هو أخرى بان يبعث نشاطاً وهمة وانجازاً لأمل أو تحقيقاً لرؤيا ، بحيث يكون هذا الأمل أو هذه الرؤيا عند احداثا أسى وأعم من همومه الشخصية الذاتية لأنها بسموها وعموميتها تكسبه كرامة وتجعل لحياته معنى بل معزى . وهنا السعادة .

تعقيب على السعادة

كلنا تقريبا ننشد السعادة ونحدث عنها كما لو كانت من
البداهيات التي لا تستحق مناقشة لأننا نعد السعادة خير ما يطلب
في هذا الوجود .

ولكننا نختلف كثيرا في معنى السعادة . وأن كان المؤلف
أننا نعني بهذه الكلمة الأمن من الكوارث وراحة البال ، أى
سلام النفس والصحة .

ولكن إذا كان هذا هو كل مانعنى بالسعادة فإن كثيرين ، بل
كثيرين جداً ، يحققونها . ومع ذلك لا يجدون منا غير الاحتقار ،
لأننا لا نحسدكم على حالكم هذه . إذ هي تشبه الركود والذهول
بحيث تستحيل حياتهم نباتية خالية من التفرز والتلبه ، ثم
ما يعقب هذا من تلبه ذهني يشبه الجمود .

والرجل الذي تنزل به الكوارث المتعددة هو — في القيم
الانسانية كالذكا . والاختبار والتعلم — خير من السعيد الذاهل
الذي لم تلبه قط نكبة فادحة تجعله يقف ويتساءل : أين موقفي
من هذا العالم ؟ ،

والسعداء الذاهلون كثيرون جداً ، وهم يستغرقون في

- ١٧٢ -

المسرات، وينشدون الثراء، ويبلغونه ويحققونه... وقد يعيشون في القصر النخم، ويأكلون أطيب الطعام، ويتنقلون في الفصول من المصيف إلى المشتى، ويجدون حاشية من الخدم، كما أن شهواتهم تجد الاشباع الدائم، وراحتهم رفاهية، ورفاهيتهم ترف وبذخ.

ولكن قليلا من الحديث مع أحدهم يوضح أن سعادتهم إنما هي ذهول وخمود وتبلد، وأهم لو كانت الأقدار قد رفقت بهم لمكانت قد كرثتهم بنكبة فادحة، توقظهم من سباتهم.

وهؤلاء السعداء الذاهلون يجدون في الكائنات الدنيا ما هو أسعد منهم. فان الديدان والحشرات مثلا أسعد، لأنها أكثر ذهولا منهم، وهي أيضا أبعد عن الكوارث.. اذ أقل ما يقال فيها إنها لا تعرف الكوارث حتى وقت وقوعها بها.

وعندى أن مثل هذه السعادة يجب ألا نشدها.. لأن السعادة العليا التي هي صفة الانسان العالي هي الوجدان. وكلما زاد الوجدان زادت السعادة، ولكن... زادت الكوارث، والهموم والاهتمامات أيضا.. ونعني بكلمة الوجدان هنا ما يسميه غيرنا «الوعى»

والناس في أغلب أحوالهم يعيشون بالتصوير الحسى لأنه

- ١٧٣ -

هو التصوير البدائي بل الحيواني الذي لا يحتاج إلى مجهود .
ولكن الرجل الراقى يدرب نفسه على التصوير الوجداني .
فنحن مثلاً نتأثر عند ما نرى طفلاً قد وقع من الترام فقطعت
ساقه . . . ولكتنا حين نقرأ أن ثلاثة ملايين هندي ماتوا بالقحط ،
لأنكاد نقف عند سطور هذا الخبر كي نتصور هول هذه الكارثة . .
فالحادث الأول سريع إلى حواسنا لأننا قريبون منه ، وتأثرنا
لذلك سريع ، ولكن الحادث الثاني يحتاج إلى مجهود عقلي حتى
نتأثر به .

وعلى هذا القياس نقول إن السعادة نوعان : الأول هو
سعادة الحواس ، أي المسرات الحسية المادية ، أما الثاني فهو
سعادة الوجدان ، أي سعادة التعقل والتصور ، السعادة الفكرية .
وهذه السعادة الفكرية لا تبالي الكوارث ، بل أن الكوارث
تخصبها ، وتزيدها نضجاً وإيناعاً ، بحيث أننا عندما تمر بنا السنين
ننظر إلى التقلبات والنكبات التي نزلت بنا كما لو كنا قد عشنا
حيوات عديدة بدلاً من حياة واحدة . . . وكثيراً ما أعود
بالذكرى إلى بعض الصدمات والكوارث والأحزان التي مرت
بى فأجد كلاً منها كان بمثابة الدرجة التي ارتقيت عليها صاعداً في
سلم الحياة لأنها زادت وجداني فزادت تعمق في الحياة وتوسعي

- ١٧٤ -

فى الاختبارات وأكسبتنى هموماً قد استحوالت إلى اهتمامات
لا أرضى بالنزول عنها الآن .

ولذلك أستطيع أن أقول إن الحياة السعيدة هى الحياة
الحيوية التى تزيد فيها درجة الحياة حدة ويقظة وتنبتها أى وجدانا .
والهموم والازمات والكوارث تجعل حياتنا لذلك حيوية . .
وهى تزيدنا سعادة . أما الأمن من الكوارث والمعيشة الحسية
والمسرات فتجعلنا نعيش فيما يقارب الذهول، فلا نقبها ولا نحتد
أى لا نتعقل فى حدة ودقة وإمعان . ولو كانت هذه السعادة هى
ما يجب أن نطلب لكان أدنا الحيوانات أسعد منا . بل عندئذ
كنا نكون أسعد بالنوم منا باليقظة ، وبالموت منا بالنوم .

ولذة الدنيا هى فى النهاية : اختباراتها ، ومشاكلها ومازقها
وأزماتها . ثم تحدى كل هذه الأشياء بالوجدان والتعقل . وذلك
الذى يبنى السعادة فى معناها الانسانى العالى ، يجب أن يزيد
حياته حيوية لا أن ينقص . هذه الحياة بالاقتران على المعيشة
الحسية ، على المسرات ، هذه هى السعادة التى تستحق أن
نلشدّها . السعادة هى الفهم بالوجدان والتعقل .

